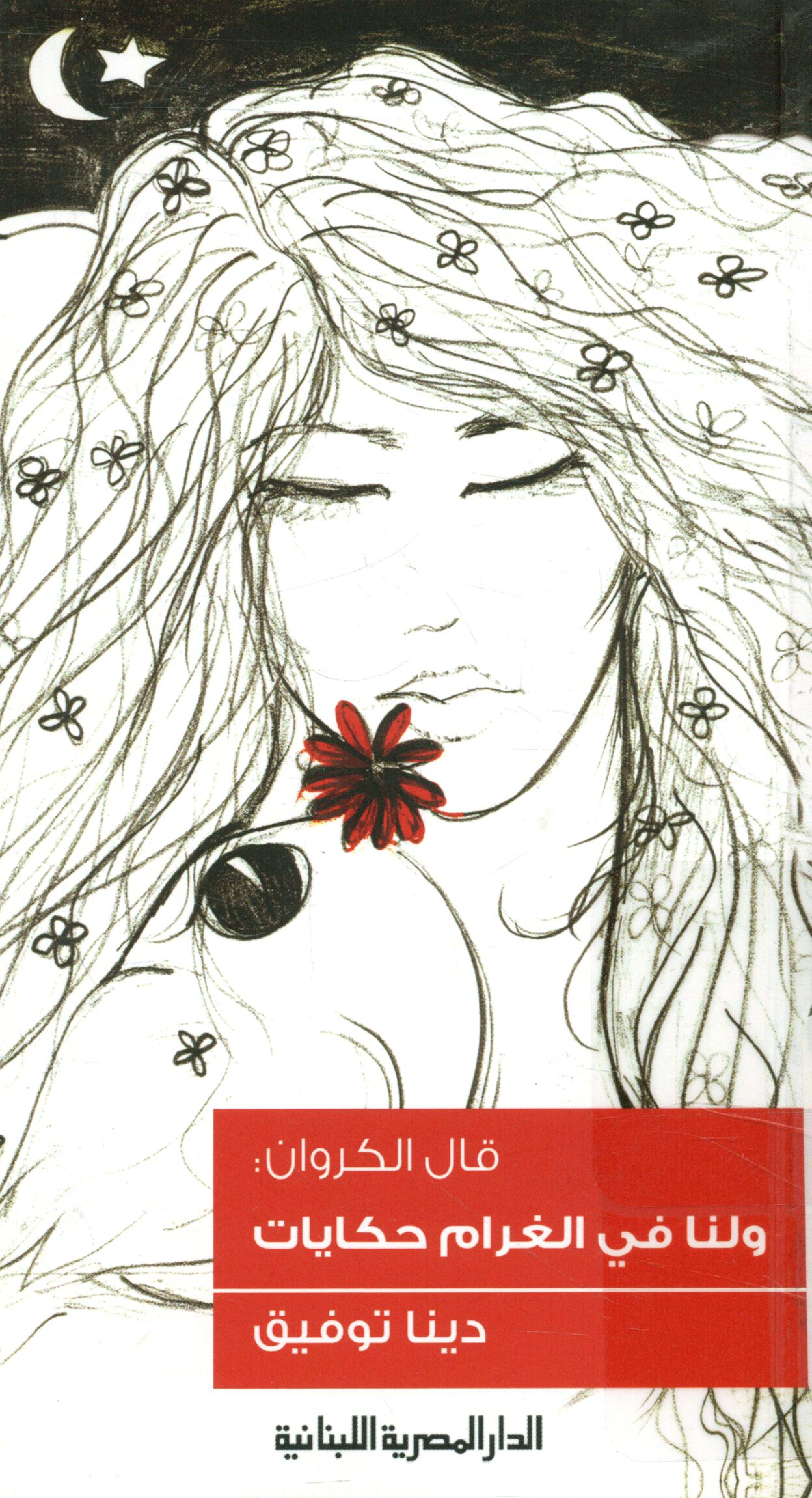


قال الكروان:
ولنا في الغرام حكايات
دينا توفيق
الدار المصرية اللبنانية

قال الكروان:

ولنا في الغرام حكايات

توفيق، دينا.
ولنا في الغرام حكايات / دينا توفيق. - ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
232 ص؛ 20 سم.
تدمك: 3 - 898 - 427 - 977 - 978
1- القصص العاطفية.
2- القصص العربية.
أ - العنوان. 813.085
رقم الإيداع: 3416 / 2014

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

الطبعة الأولى: جماد أول 1435هـ - أبريل 2014م

قال الكروان:
ولنا في الغرام حكايات

دينا توفيق

الدار المصرية اللبنانية



إهداء أول

إليك يا أمي يا زفرتي الحارة..

يا لهفتي وحُزني وجُرحي الغائر..

إلى روحكِ في عليين

«فكشفنا عنك غطاءك..

فبصرك اليوم حديد»



إهداءٌ ثانٍ

ربما أحتاج إلى كتاب كالكتاب لأكتب أسماءكم جميعًا

يا من دعمتموني ووقفتم بظهري وشددتم من أزري،

وربما سأحتاج لآلاف الأوراق واللوحات والحوائط

لأرسم عليها وجوهكم..

أهديكم إياه يا أبنائي وفلذات أكبادي..

«دينا»، «ميدو»، «زينة»، «عمر».

ولكما يا صديقيّ الحميمين.. «سعاد وأيمن».

أهديه إليك يا محمد يا زوجي الحبيب..

وإليكِ يا روح أبي وكل أجدادي....

«دينا»



تقديـــم

مـكاوي سـعيد.. الروائي المبـدع.. والصديق الكبير..
كنـت حريصـة أن يقـرأ نصـوص مـا رواه الكـروان فـي حكايـات الغـرام.. وظللـت أسـبوعًا أضـرب أخماسًـا بأسـداسٍ بعد أن أرسـلتها له في ملف علـى موقعنا الموقر للتواصـل الاجتماعـي FACEBOOK.. فقـد كنـت أطمع فـي مجرد كلمتيـن يُقيم بهما نصوصي.. وقـد (مِت رَعبة) كمـا يقول إخواننا الشـوام جـراء تأخره في الـرد.. بل إنني خشـيت وخفـت وكانـت ترتجـف أوصالـي من فكـرة أن أرفع السـماعة وأسـأله: هل لهـذه الدرجة نصوصي سيئة وغيـر قابلـة للقـراءة؟! وقـد فاجأنـي وأرسـل لـي رسـالة إلكترونيـة... وقد اسـتئذنته أن أعلنها علـى الملأ وقلت له إنـي أريـد أن يقرأها الجميـع.. وإنني سـأكتبها على كتابي وأعلنها أيضا.. «أشكرك يا صديقي لأنني أثق في أحكامك خاصة فيما يتعلق بالكلمـة.. النجمة الكهربية اللي بتضيء

الظلام».. وما كتبه هو التالي: العمل مذهل يا دينا........ دي كتابة رائعة قريتها مرتين بس مش لاقي حاجة أكتبها تضارع الكتابة الفاتنة دي لأني حاظلم هذا الكتاب مش قادر أقول إلا بضع كلمات هي: (هذه نصوص مدهشة برؤيتها وحكمتها الطفولية، وبشاعريتها شديدة الإيجاز وبأسطورية الحكي الأخاذ، وبصوفيتها التي تنبثق من ثنايا الحروف لتسكن في وجدان القارئ، وبمرجعيتها لكل حرف مسطور في أمهات الكتب أو متوارٍ خلف أجنحة الحكمة والفلسفة أو خارج من بين حنايا صدور الأولياء ومجاذيب أهل البيت).

مقدمة

في حكايات الغرام قررت إطلاق العنان للخيال لأرسم فانتازيتي الخاصة والسرية وأفشيها غير عابئة بشيء أو قيد أو تابـوه.. فاستلهمت حياتي وحيوات الآخرين وعدت إلى كتب التراث أتحايل على شخصياتها فأضيف إليها من خيالي بما يخدم نصوصي وأصنع تفاعلات كيمياء الروح ودفقات القلب وحيوية الفؤاد وتماسك وسريان اللحم والدم.. فقط أردت مضمونا ثريا بلغة شعرية نثرية خالية من أي جمود.. وعاهدت نفسي أن أعزف لحنا بالكلمات وأهديه لكم.. وعندما أخذت أقرأ المخطوط الأول لبداياتي مع الحكايات قررت أن أعبر التفكير في أي خاطرة حول نوع الكتابة التي أفعلها.. حيث لا يهم الوصف والاسم فالأهم التأثير الذي ستُلقيه الحكايات في روع قارئها..

الجزء الأول





«الجميلات هُن الجميلات».. كما قال محمود درويش، الذي جعل للجميلات تنويعات كثيرة: طويلات وقصيرات.. كبيرات وصغيرات.. أما أنا فأقول لكم:

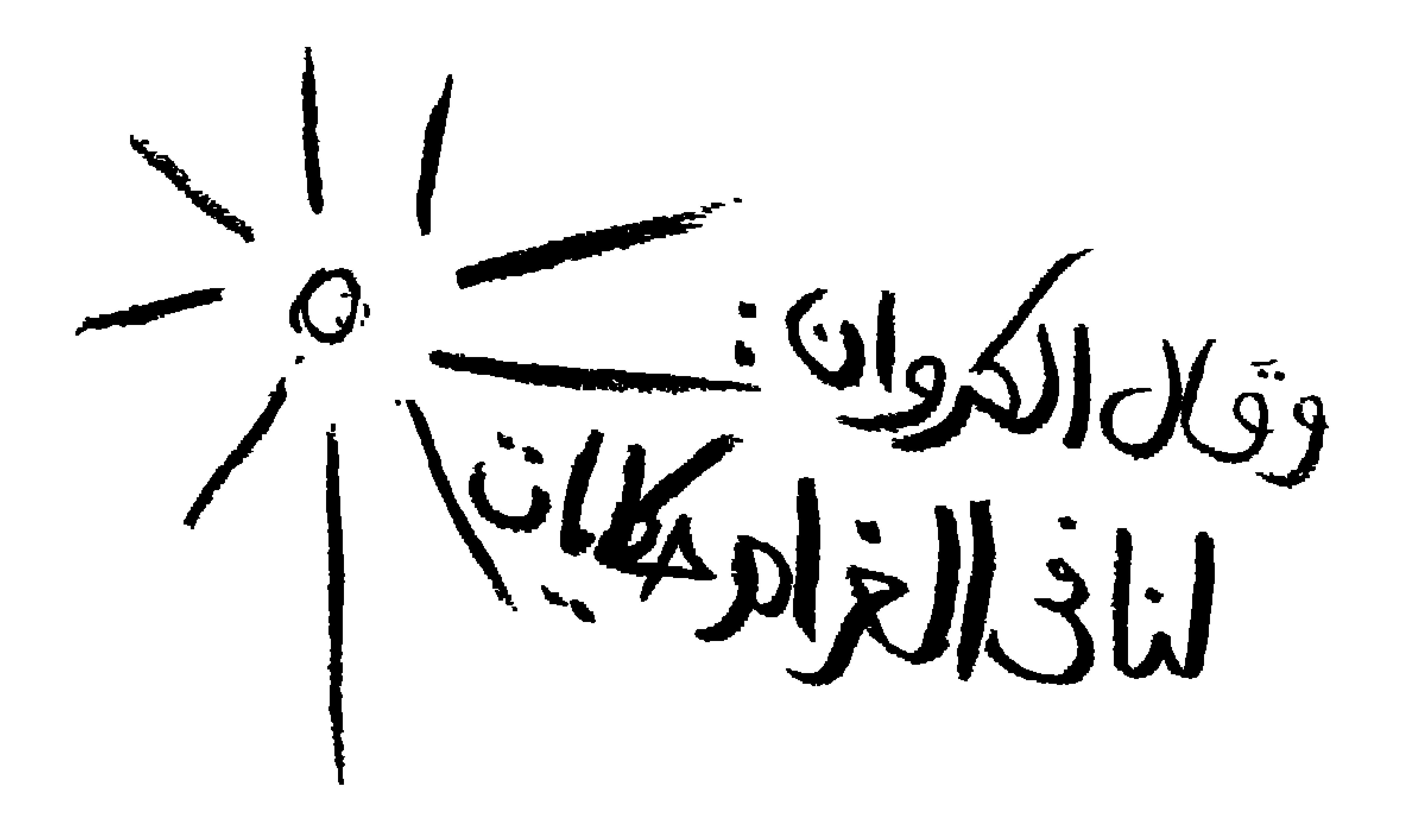
«الجميلات هن: القويات، الحُرَّات، والثائرات».





صباحات الخيرات

هكـذا صبّحني الكروان بهمسه حين حطّ بجواري.. ففتحـت نافذتـي ورأيـت طيـوري الطيبـات يقفـن علـى الأخضـر فـي شـرفتي، ومعهـن.. الـورد الحنـون، والفل النقي، والياسـمين الرءوم، والصبار الطيب؛ فأشـرق قلبي بين ضلوعي.. الله الله الله.



يا إخوان الصفاءِ والحق
والخير والجمال

أيها الكروان، شقيق الروح، أيدك الله وإياي بروحٍ منه؛ فهو نجاة النفوس من محن الدنيا وشقاوة أهلها، وإيصالنا إلى ميعاد الآخرة ونعيم أهلها.

.. حلِّق وانشر حروفي في السماء والأرض.. غرّد وادعُ.. فالناس فيما ينقسمون من أرواحهم ونفوسهم مذاهب.. هكذا أرى الحق حقًّا بصفاء الجوهر، وسرعة التصور بالخيال والواقع.. وقد كنت أريد دومًا منذ طفولتي أن أكون من الأبرار وأهل الشفقة والرحمة؛ فبحثت عن نفسي، فرأيتها ملاصقة لكل من ينتمي إلى الأخيار الفضلاء، ورأيتني بعد أن تخطيت الأربعين بأعوام ثمانية، ممن يقدرون على دفع العناد والخلاف بالرفق واللطف المؤدِّي إلى إصلاحه.. فكنتُ – وأحمد الله على صفاء نفسي – من الفضلاء الكرام، برحمة ربي ونوره.. وأبحث



اليوم - وأنا أشرف بعد عامين وشهور قليلة على بلوغ الخمسين - أن أكون من أهل التسليم، وقبول التأييد، ومشاهدة الحق والخير والجمال؛ ليتمهد طريقي إلى الملكوت.. وياليتني تكتمل نفسي وأفارق الدنيا بارتياح، يا إخوان الصفاء..

.. فالموت هو استخراج النفوس من الأجسام كما يُستخرج الدر من الصدف، والأجنة من الأرحام، والحَب من الأكمام، والثمر من القشر؛ فيُرمى بالصدف، ويكون الدُّر ويكون الحصاد، والرمي بالقشور، وتحصيل اللُّب..

وهذا حكم النفوس بعد مفارقة الأجسام.

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

صدق الله العظيم



النفحات

ومما علمني الكروان وأهداني من النفحات أنه مما أورد الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن عن شيخنا الأكبر ابن عربي أنه قال:

دعانا بعض الفقراء إلى دعوة بزقاق القناديل بمصر، فاجتمع بها جماعة من المشايخ، فقدم الطعام، وعجزت الأوعية، وكان هناك وعاء زجاجي جديد، قد اتخذ للبول - ولم يستعمل بعد - فغرف فيه رب المنزل الطعام، فالجماعة يأكلون، وإذا الوعاء يقول: منذ أكرمني الله بأكل هؤلاء السادة مني لا أرضى لنفسي أن أكون بعد ذلك محلا للأذى، ثم انكسر نصفين. قال: فقلت للجميع أسمعتم ما قال الوعاء؟ قالوا نعم.

قلت: ما سمعتم؟ فأعادوا القول الذي تقدم، فقلت لهم إنه قد قال قولًا غير ذلك.

قالوا: وما هو؟

قلت: قال كذلك قلوبكم مُنْكِرة، قد أكرمها الله تعالى

بالإيمان، فلا ترضوا بعد ذلك أن تكون محلا للمعصية.

وإليكم نفحاتي الأُخر في المعاني التي حدثني بها الكروان يومًا..

النفحة الأولى

نحن الحافظين قلوبنا عن طوارق الغفلة، والآمرين بالمعروف لنصل إلى مروج الذهب، وإن طرائقنا إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.. وإننا ممن سمعنا قول الرحمن لنا إذ قال: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾.

وإننا ممن لم نُطِعْ مَنْ أغفلنا قلبَه عن ذِكرِك واتَّبَعَ هواهُ.. فلم يكن أمرُنا فُرُطا.

النفحة الثانية

يقول الخالق تبارك وتعالى:
﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ ﴾

النفحة الثالثة

يقول ابن عطاء الله السكندري: ينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد.. أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق... سالك للطريق، «تارك لهواه».. راسخ

القـدم في خدمة مولاه، فـإذا وجده فليمتثل ما أمـر، ولينْتَهِ عما نهى عنه وزجر.

النفحة الرابعة

يقول سـعدي الشيرازي في جنة ورده: لا تجلس عابسًا مِنْ تقلّب الأيام، فإنَّ الصبرَ مُرٌّ ولكن لهُ ثمر حلو.

ولا تُبـالِ بالأمـر المُغلَق، ولا تجعل قلبَك كسـيرًا، فإنَّ ماء عين الحياة في داخل الظلمات.

النفحة الخامسة

ثم يقول سعدي الشيرازي: جَلَسَ ابنُ نوحٍ مع الأشرار، فضاعت أرومةُ نبوَّته.

وكلـبُ أصحابِ الكهف تَبِـعَ الصالحيـن أيامًا، وصارَ إنسانًا.

النفحة السادسة

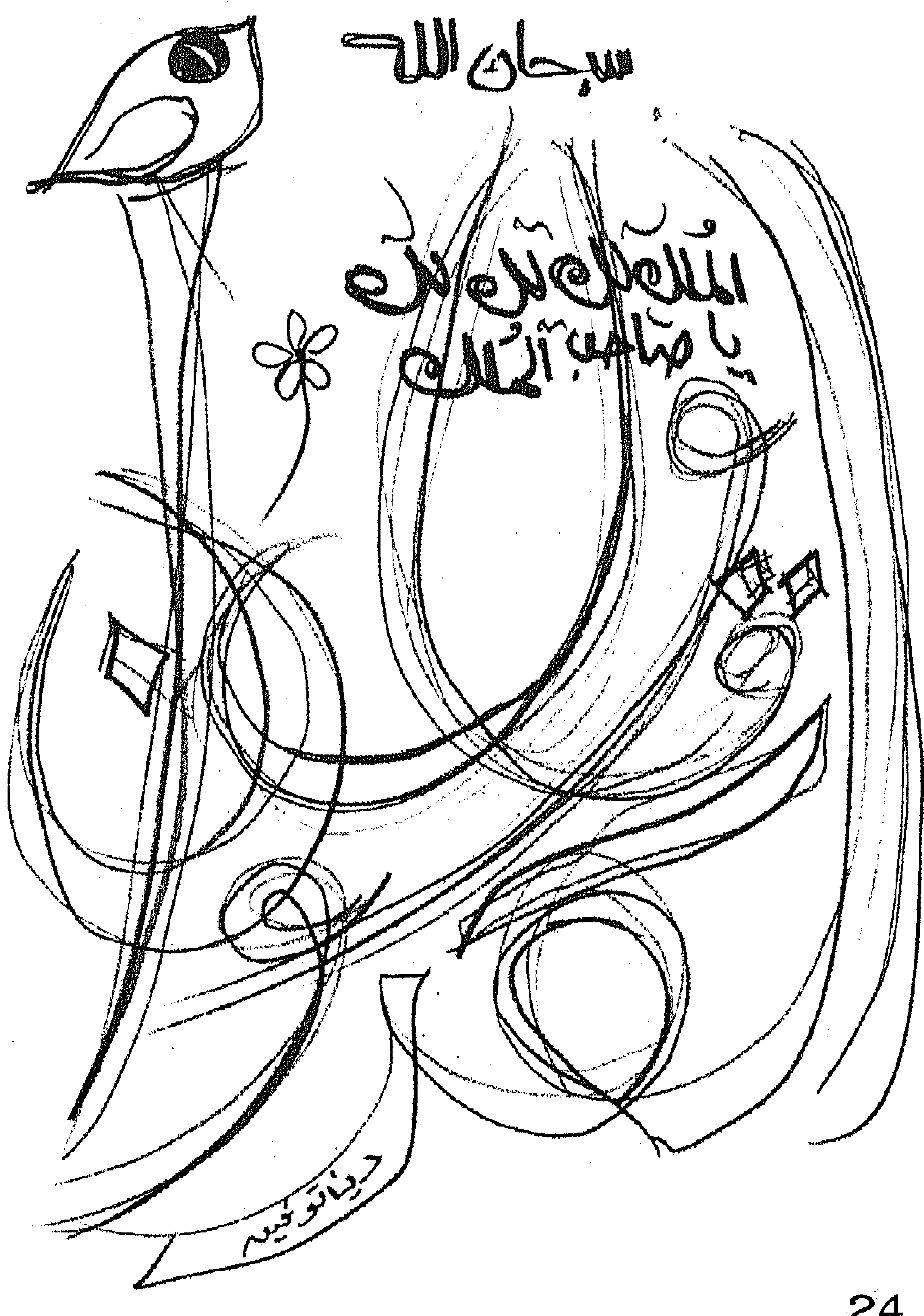
ويحكـي الشـيرازي أنـه قيـلَ لمريـض: مــاذا يشـتهي قلبك؟

قال: أنْ لا يشتهي شيئًا!

النفحة السابعة

يقـول سـعدي الشـيرازي: إذا أكلَ المَلِـكُ تفاحـةً مِـنْ

بستانِ الرعية، اقتلعَ غلمانه الشجرة مِنْ أصلها. وفي مقابلِ نصفِ بيضةٍ يستبيحها السلطان ظُلمًا، يُسلك عسكره ألف طائرٍ في السيخ.



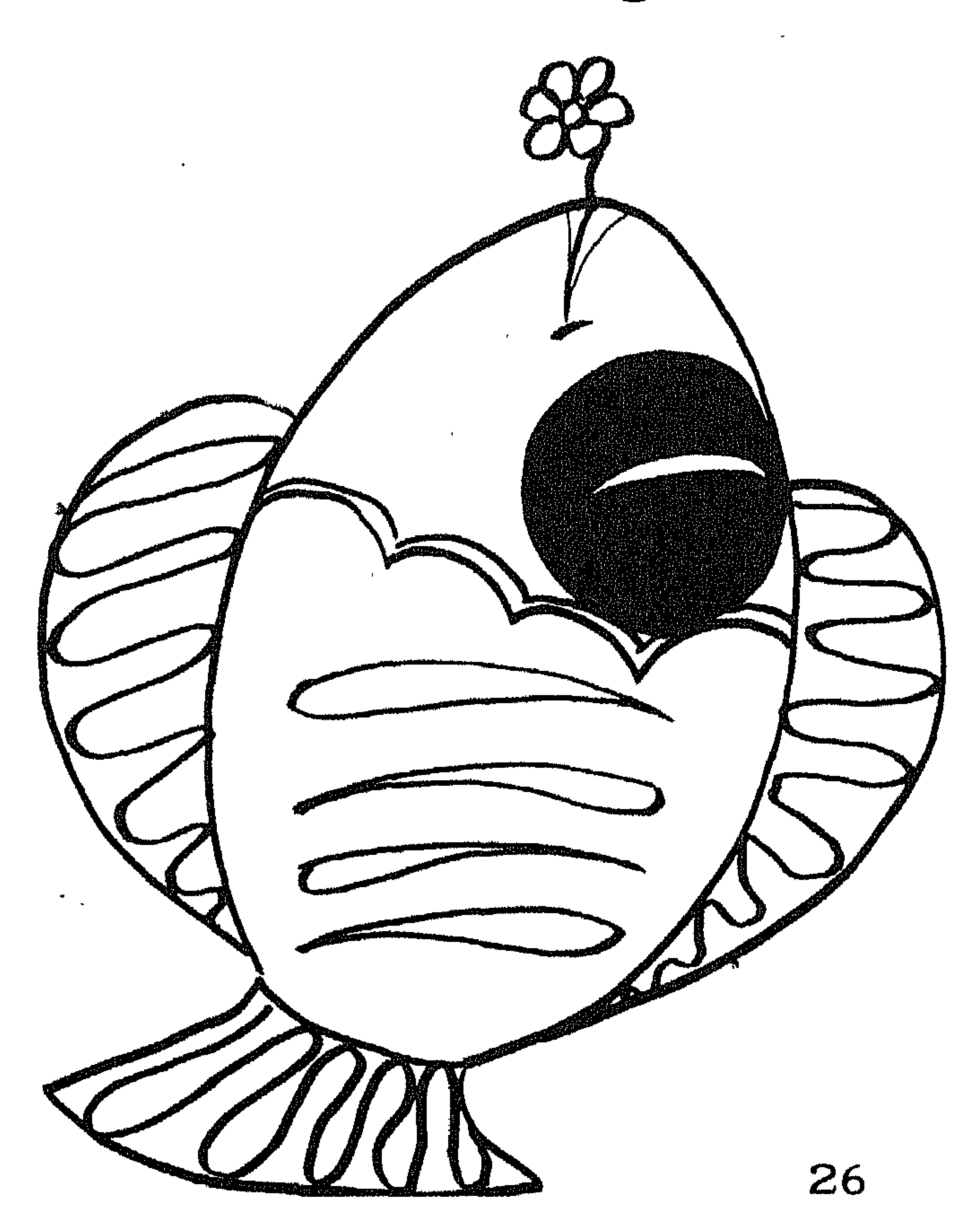
إلى سُعاد(*)

أيتهـا الفنانـة المبدعـة المشـتعلة كقبس أتى من سـماء ثائـرة بروجهـا في مخـاض جمـر.. أيتهـا البركانيـة الأداء بعبقرية أخالها رديفًا لسـخونة ألوانـك الملتهبة بالمعرفة.. يهمنـي أن تعرفـي أنني اكتشـفت أنني في حـالات الإبداع أميل إلى الأداء الروحاني وعلى ذلك فروحي تشف وترف مع الألحان الصوفية والقـراءة في كتابات الكبار الأوائل.. أجدادي الشيخ الأكبر ابن عربي وسلطان العارفين العاشقين ابن الفـارض ومولانـا جلال الرومي وأتنزه بجنة السـعدي الشيرازي وأتسمع إلى منطق طير فريد الدين العطار وأتأمل مواقـف النفري الذي جعلني أسـتوعب عبارته الموحية إن رأيت فلا حديث.. وفي غمرة الاستغراق في الكتابة أشحذ روحي وأشـحن طاقتـي بصوت محمـود درويش وتتجلى لي ألحـان الصوفية وبإمعان أنصت لمـا يخرج من حنجرة أم كلثـوم.. ومـا يعزفـه النـاي بهوى فيـروز.. ومـا يتماهى

(*) صديقتي. وهي من هي بحياتي وقلبي.. هي أخت لم تلدها أمي.

مـن حِس محمـد عبد الوهاب وأشـهد بأذني على إشـراق الشمس كل يوم في صوت عبد الباسط عبد الصمد وأمتص موسيقى الغجر بمسامي وعند الفواصل بين نزهات الروح أغرق في المشاهد العبقرية في السينما الإيطالية والفرنسية وبعض أفلام داود عبد السيد ويسري نصر الله..

.. فهـل يا سـعاد هناك أجمل من ذاك الشـفيف الرفيف المُسمى بالروح ؟!



صباح أنتظره

من يجعلنـي أزرع العالم وردات محاطات بالأخضر..

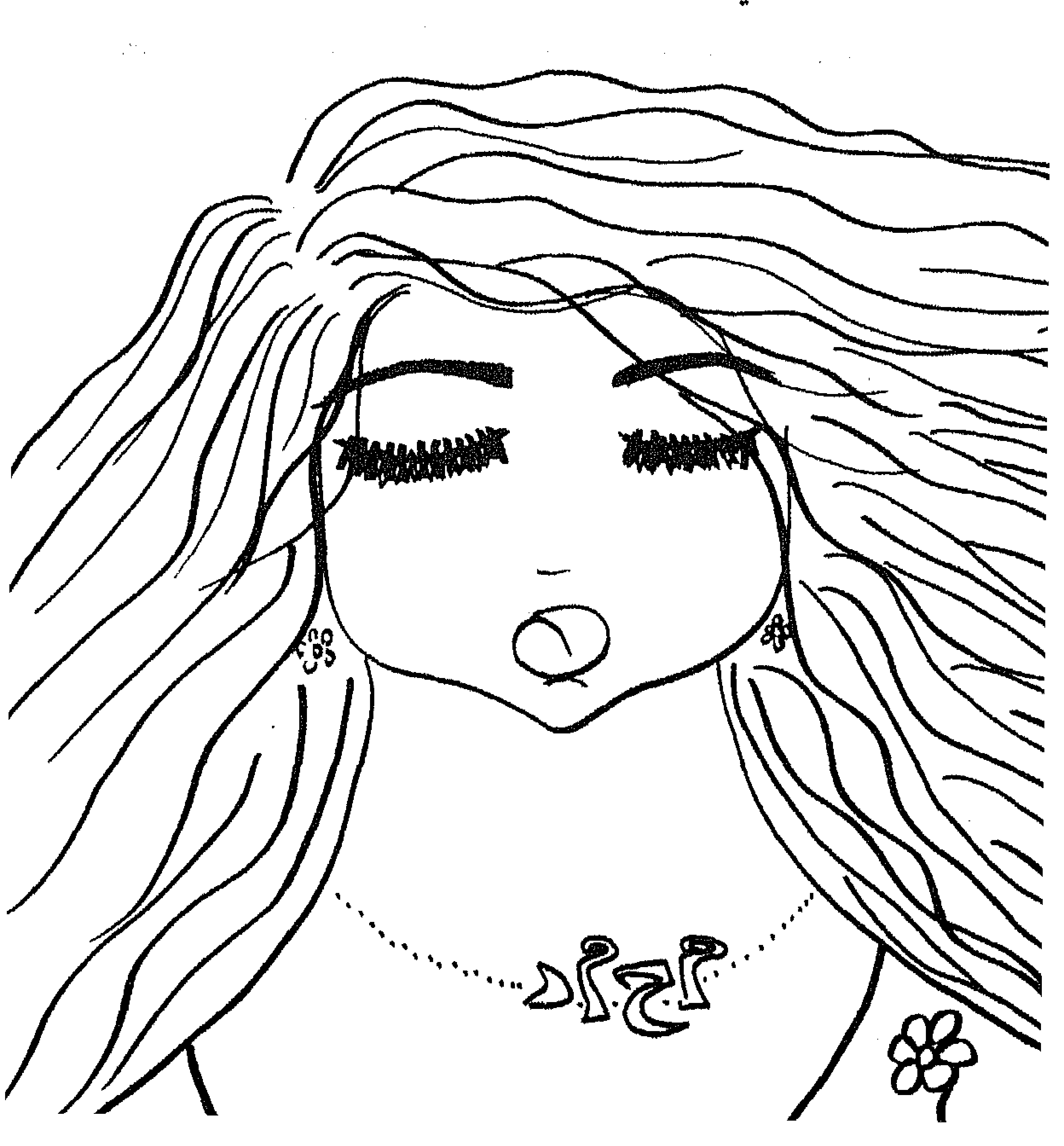
ومـن يجعلني أذرع ما بين السـماء والأرض جيئة وذهابًا.. ومـن يجعلني أسـتخرج الضوء مـن كل النجمـات.. ومن يجعلني أستنشق عطر البحر ليصفو عطري.. ومن يجعلني أضـع ومضـة روحي على قلـوب الناس لترفرف فراشـات يعزفـن بالأجنحة كونشـرتو اليقيـن.. وربما أتسـاءل عمن يجعلنـي أرسـم بأصابعـي هـالات الرضـاء فـوق رؤوس الساسة ليكفوا عن تدمير الحق.. ومن ومن ومن.. ؟؟؟!

.. كل ليلة ألتحف بـدفء هواه والحُلم لأتحرر من برد ارتباكي في انتظار صباح أنتظره..

هو لم يأتِ بعد.. ولكنه سيأتي.

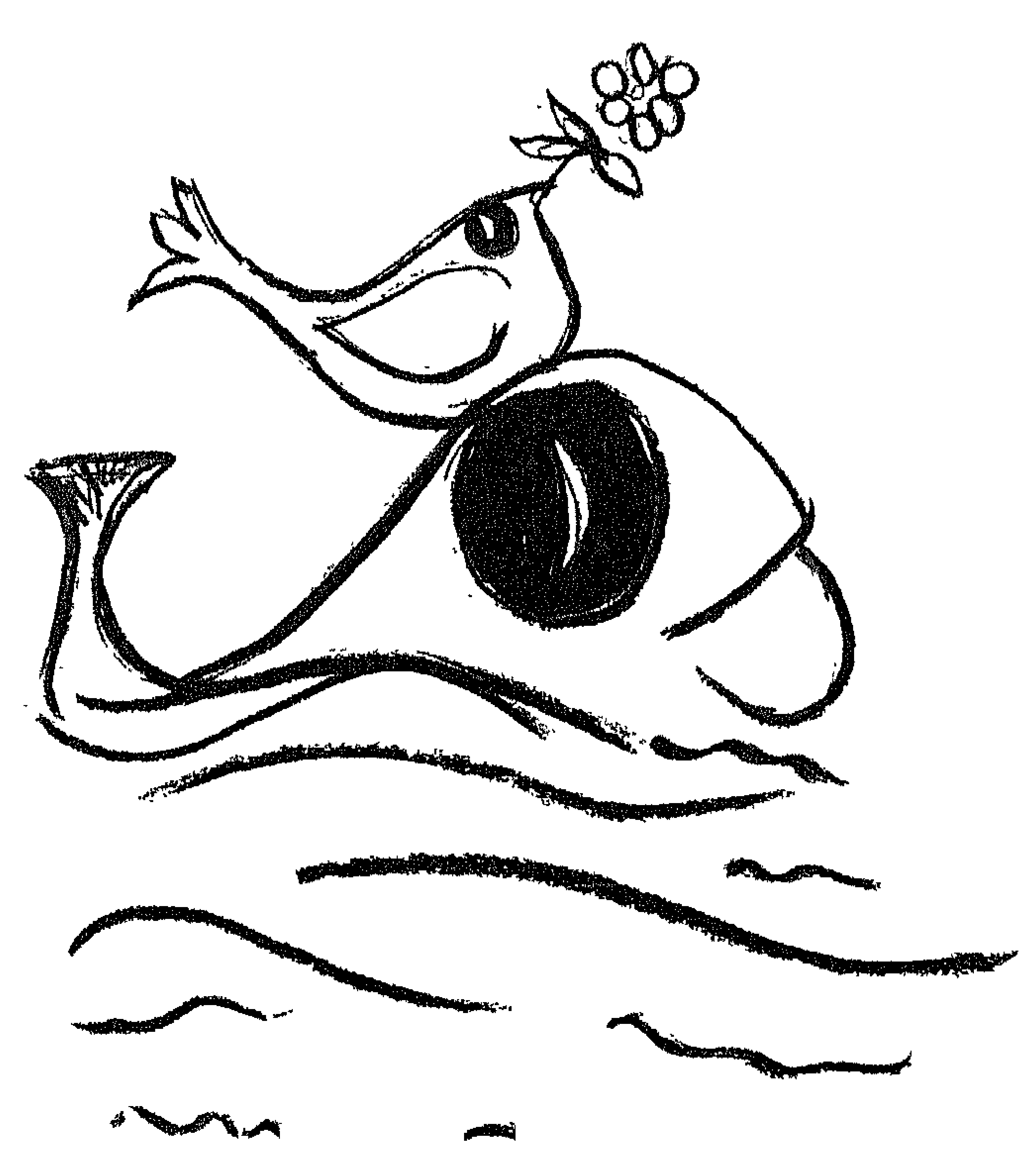
يا «أبو الخيال»

يـا «أبو الخيـال» فنـان.. قاعـد مونِّس فكرتـك.. وهي مولفـة على روحـك.. تقول ازاي وحيد ياللـي فارد أيامك قدامـك ومرجَّع ضِحك زمان.. خد راحتك وخد بالك من وحدتك دي صاحبة أفكارك..



سُرَّ من رأى

في تلك الليلة كان سِر ما رأيت.. كان انفلاتًا لحد الانفلات.. كانت حروفي غنجًا وأنفاسي وردًا.. وفي تلك الليلة سُرَّ من رأى روحي في حضن روحه تتفتفت كسُكرٍ حلاوته أسكرته.. وبعد تلك الليلة كان بعضي يربت بعضي حين غادرت.. وكان وجدًا وكان دمعًا وكان طيفًا وكان وكان وكان... وكان إلى اللا منتهى.

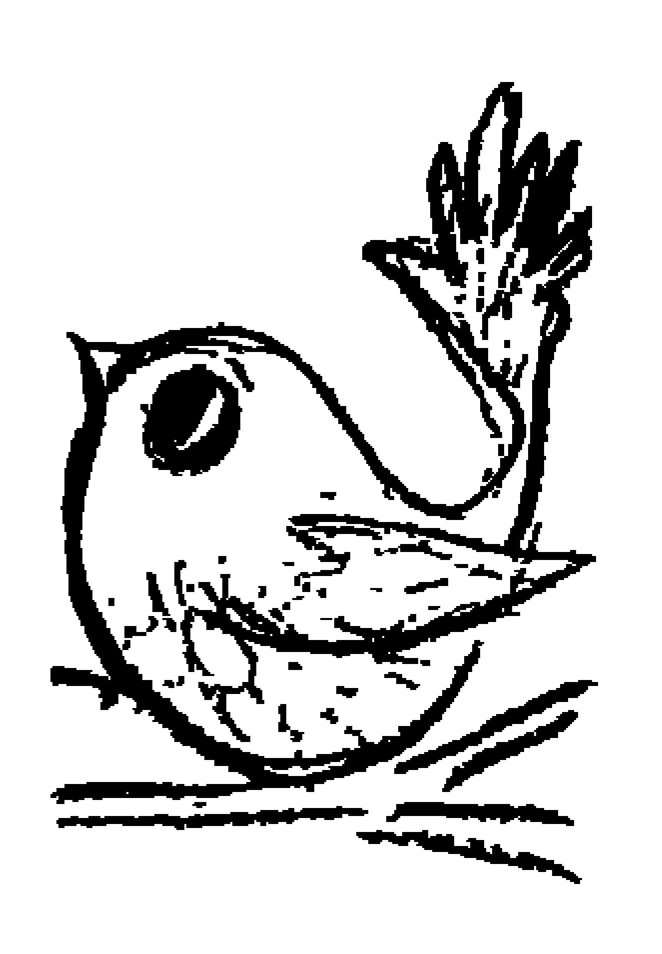


ثمة شيء

ثمة شيء في الأيام الفائتات.. بجدارة رسم المستقبل.. حلقت الروح فيهن فلملمتني...

كُلي بجُملتي مضمومة الحرف والسمت.. مضمومة بعضي ببعضي

يا ألله! كيف كان لي أن أكون لولا تلك الأيام التي داولتني بينها.



قل هو من عند الله

قــال ... رُدي الروح.. قالــت.. خبرني عن الروح.. ما لها ؟..

قــال.. ويحـي... أنى لـكِ هـذا !!! شـفافية بما خلف الأشياء... فليكن دعاؤك

قالت.. قُل هو من عند الله يؤتيه من يشاء.



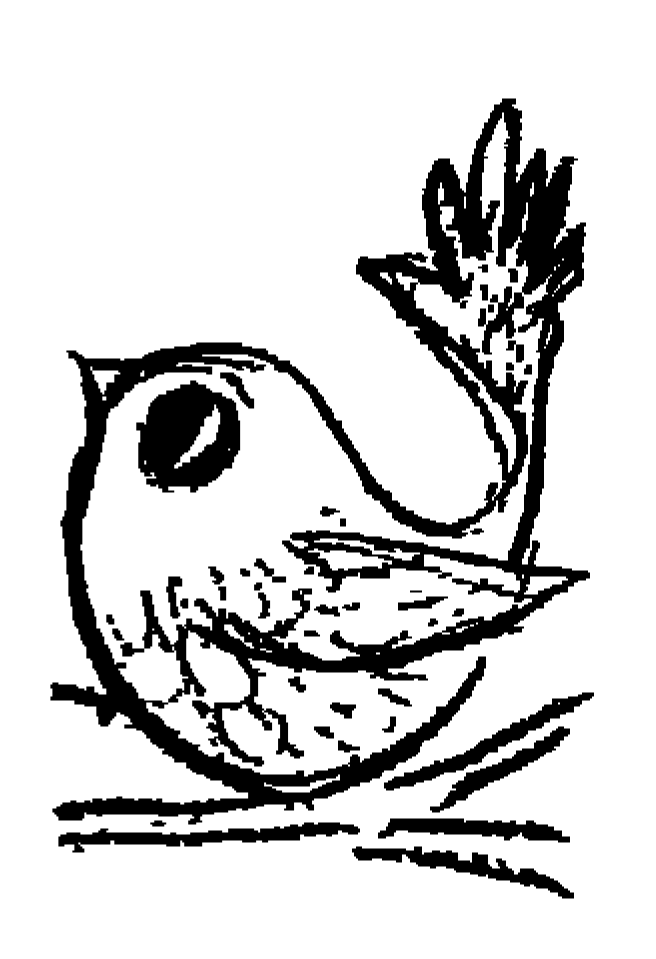
علو

أتنشـق تلك الرائحـة القادمة من البعيـد.. كم هي قريبة بلا جفو ولا عتب..

يالــ.. الحنين.. أحجيـة هو.. ولكننـي حللتُها بالحنين فتذوقت روح الشهد البعيد

والبعيد أقرب.. !

وللشـهيد جنتان.. جنة حب كسندس يلتقف الجسد.. وجنة عطر كأريج يسري في الروح.. ويعلو ويعلو.



غزل الروح

شـفت الروح ورفـت.. وغزلت الروحُ مـن الهوى ثوبًا لك.. وحين أومأت وبحرفك لم تبُح.. عزفت الروح غزلًا جـاءت معـه الغـزلات والطيـر فتمايلوا ورقصـت روحي رقصًـا ناعمًا.. ورأيت كزرقـاءِ الغيب فكان كشـفًا.. وكان مكاشفة.. وكان تكشُّفًا.



الغرام

الغـرام حكايات.. حكايات الزمـن فيها ما فات.. هوى مزقزق ريحه كما العصفور

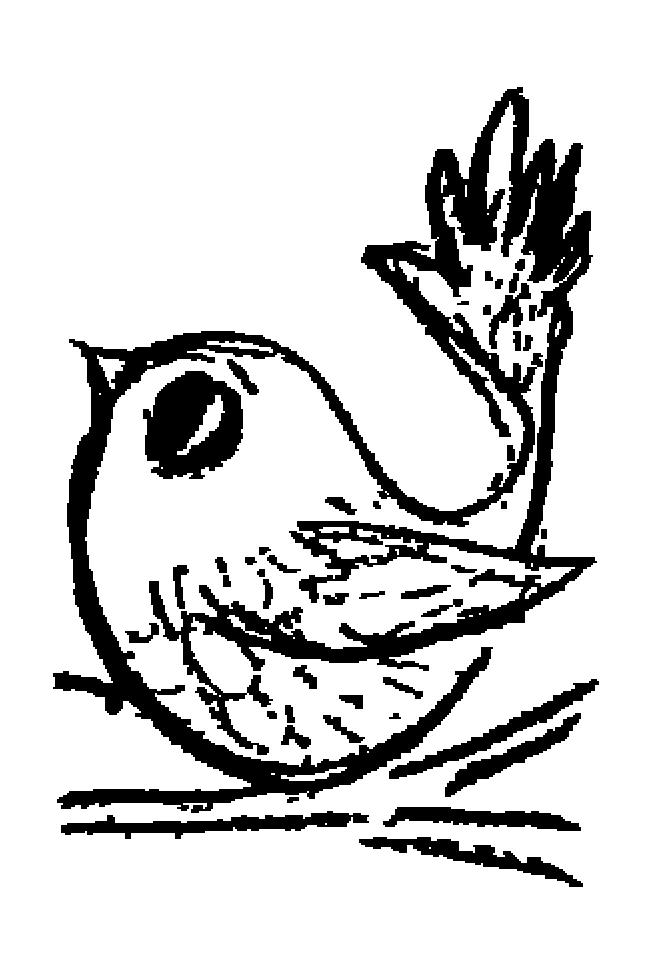
.. والعطر فلتان والضحكة مزقططة..

غـرام خلانـا كمـا الزهر رمية فـي إيد القـدر.. يوم حلو والتاني محتاج شوية سكر..

والحكايـة مـا تنتهـي لأن الصبـي عشـق الصبيـة.. هي الحُسن وهو الشاطر.. والحكاية من حيث تنتهي تبدأ..

هوى فتان لسانه بينقط حكايات ولا خجلان ولا زعلان لأنه آمن.. ويمكن مآمن وفي كل ليلة منام بحكاية..

أصل الغرام حكايات !



ربما

أظنني كل الشجر أو أنني جنة الورد .. ولكنني ربما كنت مجرد ورقة تهافتت من شجرة.



يا صاحبي بالصبر

يا صاحبي.. يالـ.. الهجره !! سيرة تغشى الروح بثوب فضفاض من اللوعة.. سيرة الهجر أنحلت جسده وزادت في الروح أنينًا ووجعًا واشتياقًا.

وإن كان بالغرام جروح فالذكر صبر، والصبر إيمان، والإيمان شفاء.. يا صاحبي بالصبر.



إنني وإن نظر الأنام لبهجتي
كظباءٍ مكة صيدهن حرام

قسمًا بمن خلق الخلائق كلهم.. قسمًا بمن سوى البنان وأهدانـا نجديـن للنجاة.. إن التي صبـرت على هجرانها.. رغـم رغم.. لهـي بكل تاريـخ الأنام فيَ الغـرام.. وبكل ما دوَّنـه الأولـون من كلِمِ في سِـجل العشـق يا مـنْ أنتَ أنت لا قيس ولا عبس ولا عدنان...

وصدقـت حبيبـة ابن زيـدون ولادة بنت المسـتكفي إذ قالت:

إنني وإن نظر الأنام لبهجتي كظباء مكة صيدهن حرام



أَقِم الرّوح لذِكرِهِ

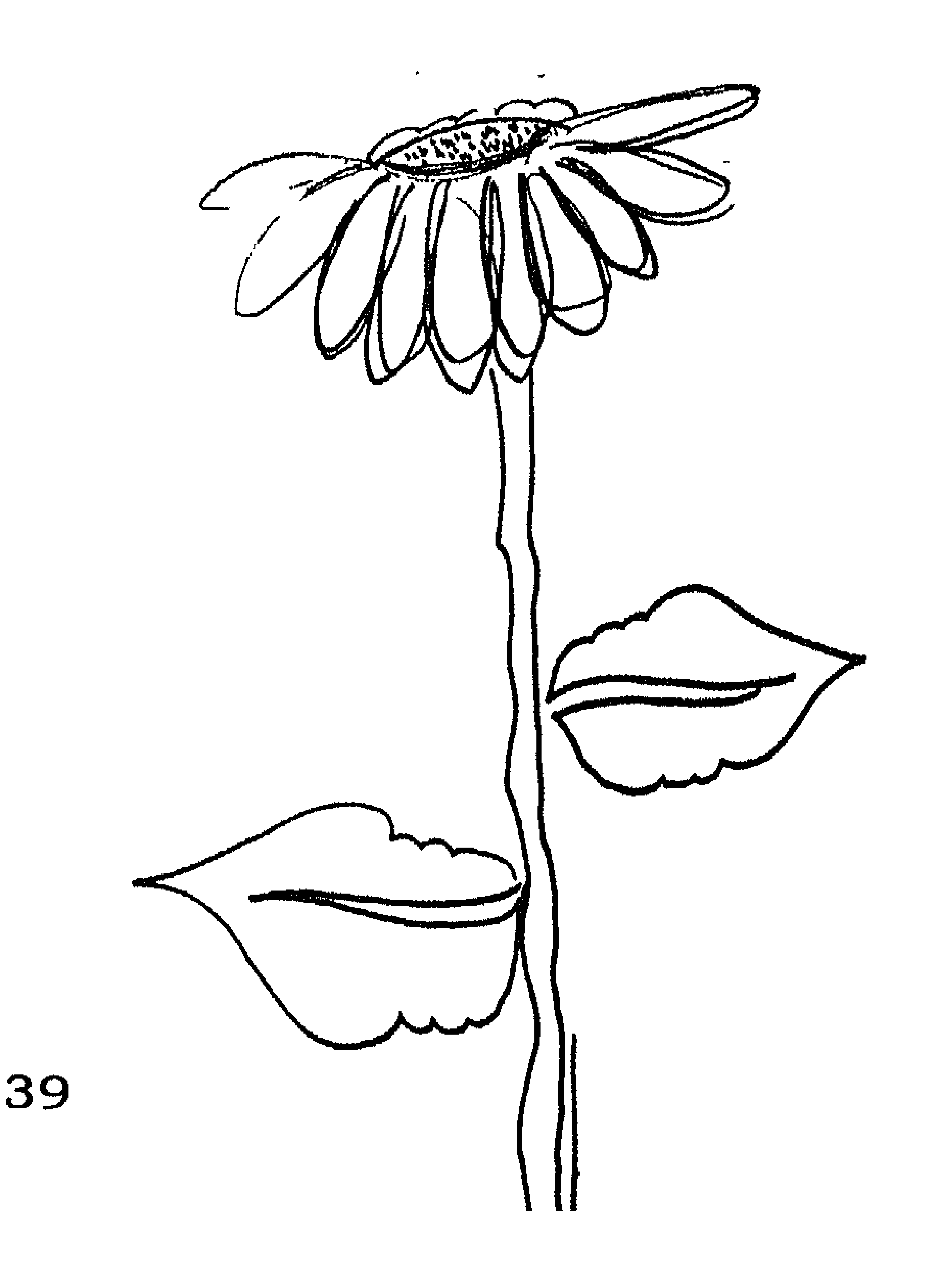
أقم الروح لذِكرِه.. وأُذكر العين وطرفها ونظرتها..



الوردة

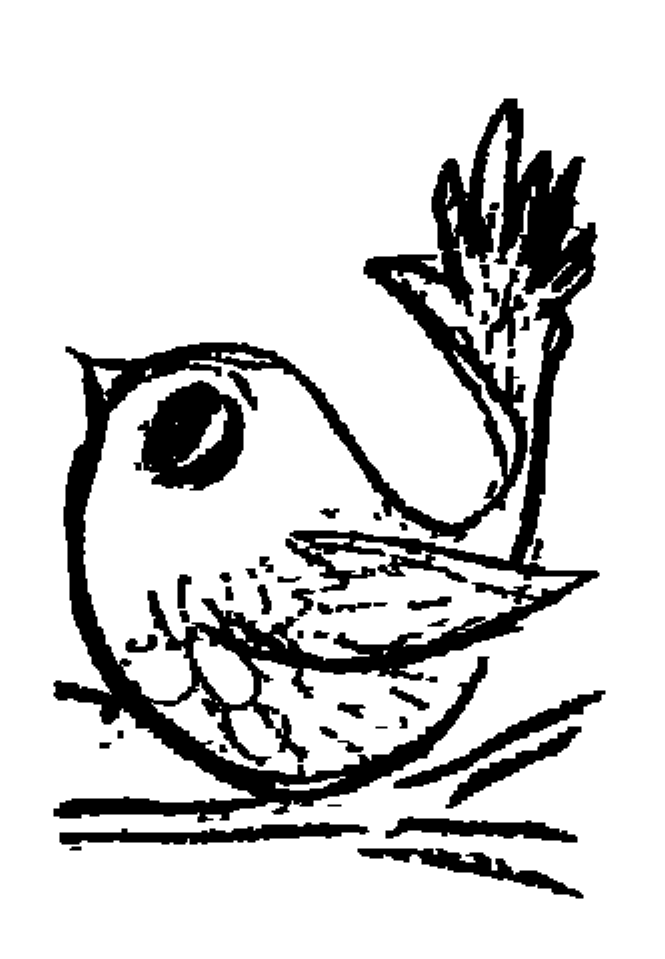
مالــت فأطلت فقالت هات راحك والوردة.. ولقد كان الانتظـار قـدري حتى عودتـك من أرض الوحدة وسـتبقى وكفك بكفي.. ولن يغمض عنك رمشـي.. فلا هجران ولا فراق.

الروحُ تجودُ من ذاتِها.



يا خمرا دون كأس

وأخـذت أسـبح فـي النهـر حتـى ثمِلـت يا خمـرا دون كأس وكنت أنا الماء يُعمدُ جسـدكِ.. وكنا نطير في الفضاء كأننـا نطفة بلا رحم.. في الإخفـاء جمال.. وأخفيت حتى تجليت وأبحرت في الأزمان والأكوان وجمعتُك من فيافي الروح.. وسنرقص تحت إيقاع النجوم والخفي سيتجلى نسـرًا محلقـا والحديقة السـرية سـتكون مزارًا للعُشـاق.. والإسـكندرية تميمة الـروح والانفجار البشـري بالثورة.. وأنـتِ فـي كفيـك فسـيلة مـن شُـجيرة كل هـؤلاء الطيبين زرعتِها في بستاني !



وكان قلبانا ذلك اليوم حديدًا

وقال الكروان:

كنتِ حزينة.. وكنتُ أحكي وأبكي..

كنتُ أبكي الوطن فأخذتِني في حضنكِ.. وكان صدركِ يرتفع وينخفض

وكنت الوليد الذي ستتركينه في النهر كأم موسى..

فرُحتِ تُعمدين جسدي بيديكِ..

وكان قلبانا ذلـك اليوم حديدًا، وكنت أنا الحبيب الذي سـقيتِهِ يـا قطر الندى زادًا سـوف يبقى معه وهو مسـافر في المجاهـل وكنت أنا مـن منحتِهِ من المُقدَّسِ ما سـيكفيه ما دام حيا..

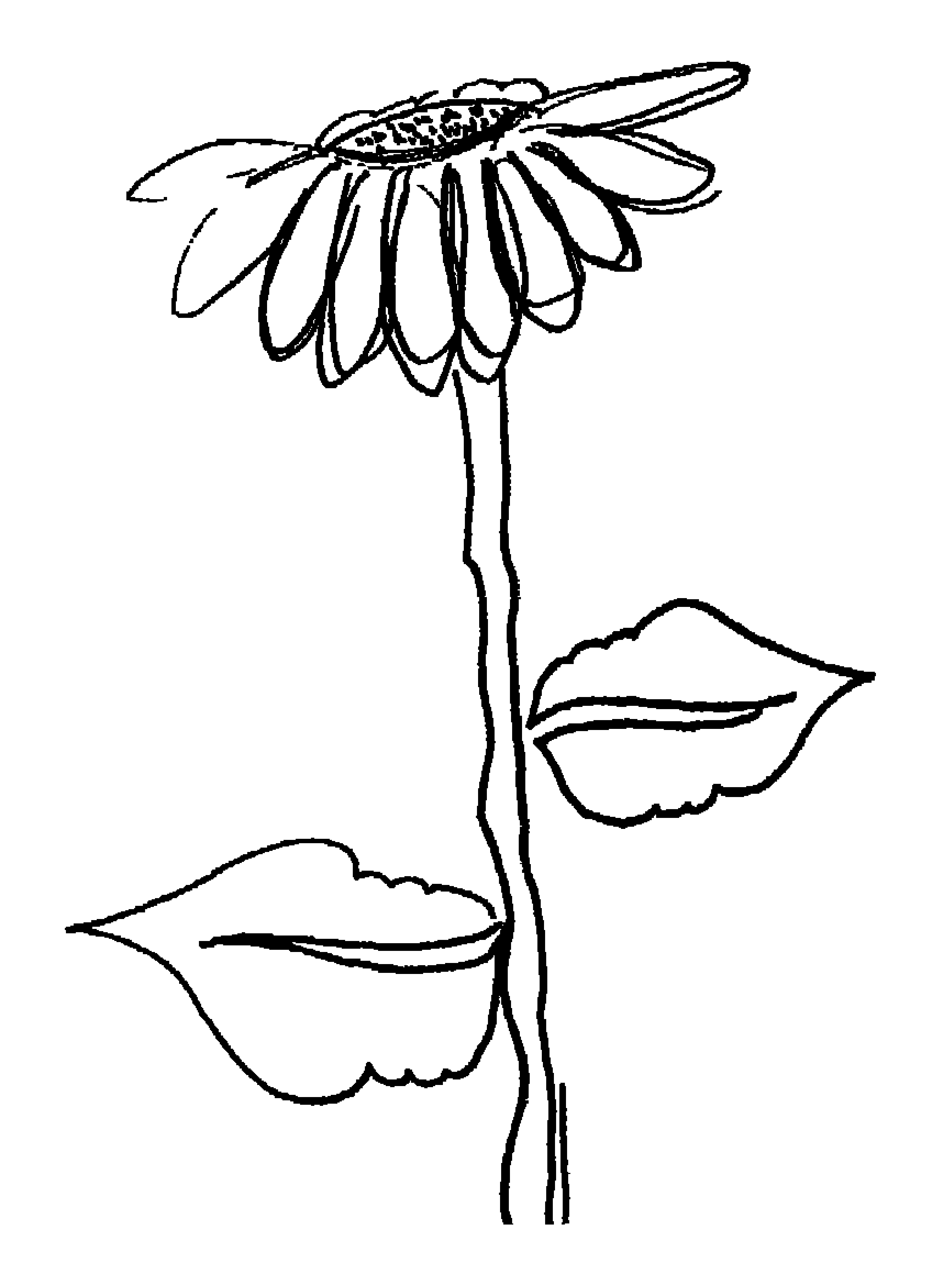
وكأنـه بعـد ثمانية قرون الزاد لم ينفـد والمقدس يتعتق كالخمر..

.. ويرتجف الكروان بين يدي!

ففي تلك الليلة لم أكن أنا..

كنـت أبكـي على انهيـار الممالـك وتفشـي اللصوص والخونـة في المدينة.. كنت أبكي فـي صمت على حال ما أبدعته الحناجر وهو يتلاشى من الصدور..

وكنت أشعر بالأسـى يـا حبيبتى فحملت قوسـي وزاد السفر وخرجت خلسة مع الفجر.. ولم تودعيني ..



طوبى

طوبى للخيرين ولخيرهم.



الموت لا يعيبه إلا اسمه والفراق

كتب أحد المدونين العام الماضي:

«قامت ماما بالموت فجأة، وبدون مبررات، وأخذت كل حاجة معاها كتذكار أرضي، تاركة لي كنبتها الحمراء، وها أنا ذا أجوب البيوت المؤجرة حاملًا كنبتها..... أو تحملني هي..».

أما أنا فهمست لروحي:

«يا ترى زينة بنتي ممكن تقول الكلمتين دول في يوم من الأيام؟».

إنه الموت الذي لا يعيبه إلا اسمه، والفراق.



البستان

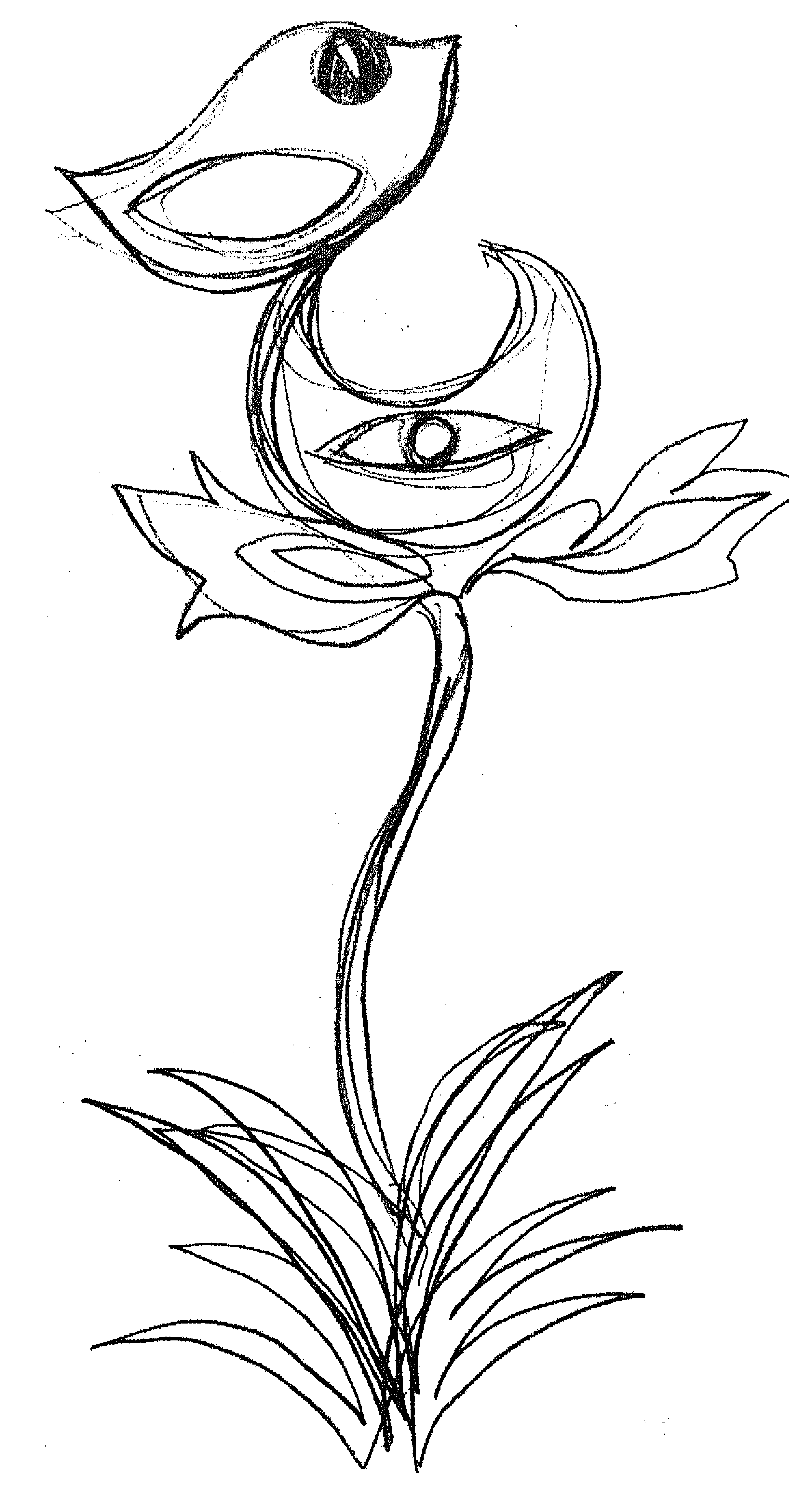
في تفسير الرؤى قرأت.. أن البستان امرأة؛ لأنها تُسقى بالماء، فتحمل وتلد.. وأن البستان في عين الناظرين هو الجنة.. شجر موائدها.. وثمار طعامها.. لبن وعسل أنهارها.

***

وانحنى الكروان إجلالًا لروح الصباح إذ تنفس زهرًا وودًا.. وكان الدعاء صدحًا بيُسرٍ سرى في الشرايينِ؛ فتفتحت.. وتغنجتُ أنا كصبية مدللة، حولها العشاق، كلٌّ يناجيها ويخطب ودها.. فذاك الطائر يحط بقبلته على شفتي، وذاك يرسم تفاحة على خدي.. وها أنا أسألك: مالك أيها الصُّبح؟ داخلت أنفاسي؛ فصرت أنت أنت بجمالك تُخايلني، وكأنني أوشكت أن أكون منك لمحة!!

يا ألله، يا ألله، يا ألله.

***



يقين

أناديك أيها الإيمان.. خذني بيدك، ودفئني بحضنِك

أيها اليقين بالتعافي، أنت قِبلتي وقُبلتي

وها هي...

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾.



صلِّ

أيهـا السـيد القريب البعيـد.. صلِّ لأجل مَـنْ هاموا في صحراء البحث عن حقيقة تدفئ الأوصال..

صـلِّ وشـاركني الـلا زمان واللا مـكان، فالزمـان غابر والمدن عابرات..

صلِّ وشـاركني هواء الروائح المنبعثة من سـفينتي التي أعبر بها إلى اللا زمان الأبدي، والتي على متنها حملت من كل زوج بهيج، وكائنات أخريات لا تُحتمل خفتهن..

أيها السـيد.. صلِّ ولا تكن فـي ريب، فالأرض هامدة، وإن نـزل عليهـا المـاء؛ اهتـزت وربـت وأنبتـت.. وإنـي لأنتظِرُك عند الحافة لنقف عند سُـدة الكون، وتعبُر بي إلى اللا مكان.

أيها السيد.. صلِّ معي.

ابنة الحمائم والملك العاشق

وفي البدء نلقي على الصباحات تحياتنا الوردية الزهرية .. وبعدها نحكي أنه كان يحُط الحمامُ على الدار القديمة ذات القرميد الأحمر.. وكان الكروان يشهد أنها كانت في المهد.. وكان يرف الطير حولها ويرفعها ليحلق بها.. ثم إنه حين كانت عين الشمس تحمى يعيدها إلى فيء الدار..

كانت هي مولودة الحمائم، يطعمنها قمحا ودُخنا وشعيرا، وتأتيها العصافير بالحَب، ويحطنها بالزهيرات يُعطرن مهدها..

وكانت هي تلعب مع كائنات مسحورة في الليل، تحيك لها أثواب الخيال، وتلهو الغزالات في الصباح معها، ويُحممنها في النهر..

الصبية تكوَّر ثدياها، وارتسم عنقها واستدارت حناياها، وصارت ظبية حُرة في البرية.. هكذا شهد الكروان أن لا أنثى بانفلاتها الناعم وشكيمتها وعزمها.. وشهد أن لا سواها بجمالها وحكمتها التي أطعمتها الحمائم..

ورآها الصيادون في ليلة تنام على الغصن.. فقالوا: «يا إلهي ما أروع أن نُسكنها قصر الملك.. إن مكانها الملكوت تأمر فتُطاع»..

وكان الملك يُسبِغُ عطاياه على اللئام حين يأتونه بما يشتهي..

وكانت هي لذة للملك البهي، وكان هو نار وحديد مشئوم اكتواها رغم دمع المذلول بعينيه يتمناها فتمتنع.. حتى كانت ليلة قمرية زارتها فيها الحمائم مهتديات بعلامات النجم إلى قصرها المشيد.. وفي تلك الليلة عادت الصبية إلى روحها.. حين مالت إليها أمها التي لطالما سقتها لبنًا وعسلًا وهن ماء السحاب؛ لتقول لها وهي تطويها تحت جناحها بتحنان رءوم: «قلبك.. سيلين للمفتون، الملك العاشق الذي يتيه بكِ ويزهو».

وذات تلك الليلة أخذها الملك العاشق في قُبلة أبدية فانفتحت أمامها بوابات الحياة وعبرت الأسوار..

وبحكمة الحمائم برأسها الفاتن استعادت الصبية الحُرة الملكوت، وطوت تحت سنابك فرسها الأرض التي لا يعرفها الناس.. وأحاطت بما لا يعلمون..

وظـل الـمـلـك عـاشـقًـا.. والـصـبـيـة لا زالـت ورغـــم رغـم، بـلا شعرة بيضاء، ولا مـس الزمان مرمرها.. وظل الملك عاشقًا والصبية رغم رغم، لا تهيم سوى بالمُفتنِ ..

هكـذا حكـى الكروان.والغـرام في النهـر.. وللحكاية حكاية لا زالت طي الكتمان.



أين أنتِ أيتها القمح القديم؟

فـي اللا مكان أسـكُن أنا إلى حديقتي السـرية، وأتعمد في مجـرى نهرهــا، وأُلاعِبُ غزالاتهـا؛ فيركضن وأركض خلفهن.. وأقفز ليسقيني السحاب من حليبه.. ومع فراشتي الزينة أطير؛ فتسـبقني، وأحرضها بأحجية تغريها؛ فتتراجع لتسمعني، فأسبقها بشقاوة.. أنا هنا في رحاب الإله.

قال: محوت أسمائي ونقوشي وجبال الليالي

محوت آثـار قدمي من الدروب، وقطعـت حبل الهواء عن رئتي

واختار القلب أن ينبض في جوف جميزة.

قلت: وخطوت على إثرك أحبو،

آه منك أيها الشجر القديم!

قال: أنتِ القمح القديم.

قلت: الشجر القديم أصل الحياة، وله صنو في اللا مكان والـلا زمان، حيـث حديقتي السـرية، وسـأنقش على باب شجرتنا القديمة أن: لا زمان ولا مكان يحُد الروح.

ومـن حكايات الغـرام: أخبرنـي الكـروان أن الحديقة السـرية قد فُتِحت أبوابها؛ فتعرضـت للعواصف، وأنني لم



أكـن قد عرفت أسـطورة آدم إلـى الآن.. آدم الذي أكل من الشـجرة؛ فطُرِد من ظل الإله.. وسـألني حبيبي: أخبريني.. من أنا؟ فقُلت له: أيها السيد الجميل.. إن ريح الجنة الصغيرة زهر وفراشـات.. ريح لا تقتلِع الأشـياء، بل تُطيرها صوب الـلا زمـان والـلا مـكان بحنـوٍّ.. وآدم كان مـن صلصـال كالفخـار، كان أجوفا؛ فاحتقره معبـود الرياح.. ونبتت من ضلعـه نبتـة البرعم مفاجـأة، فكانت هـي بدايـة الحكاية.. نصـف إلهـة.. غازلته؛ فعشـقها مـن دون كائنـات الجنة.. وكانـت حية الحياة تُغريهـا وفي جوفها الريح.. وكان هو.. وهبطا معًا، وطيرهما الريح إلى المكان والزمان.. عاشـا.. أنجبا.. ولكن بعد الهبوط ـ لا محالة ـ صعود.. إنه الصعود إلى اللا منتهى!

قال: من أنتِ؟

ثم أجفل لحظة، وواصل: هاتفني مناضل رفيق، كنا معا في المعركة، يشعر بأنني لست أنا..

لَمَ كنت هناك في دربي القاحل؟

وصمت، ثم قـال: الرمح والكهف يصليـان كأنهما في انتظار أرض الميعاد..

أين أنتِ؟ لماذا ذهبتِ بعيدا؟

قلت: كنت أصلي.



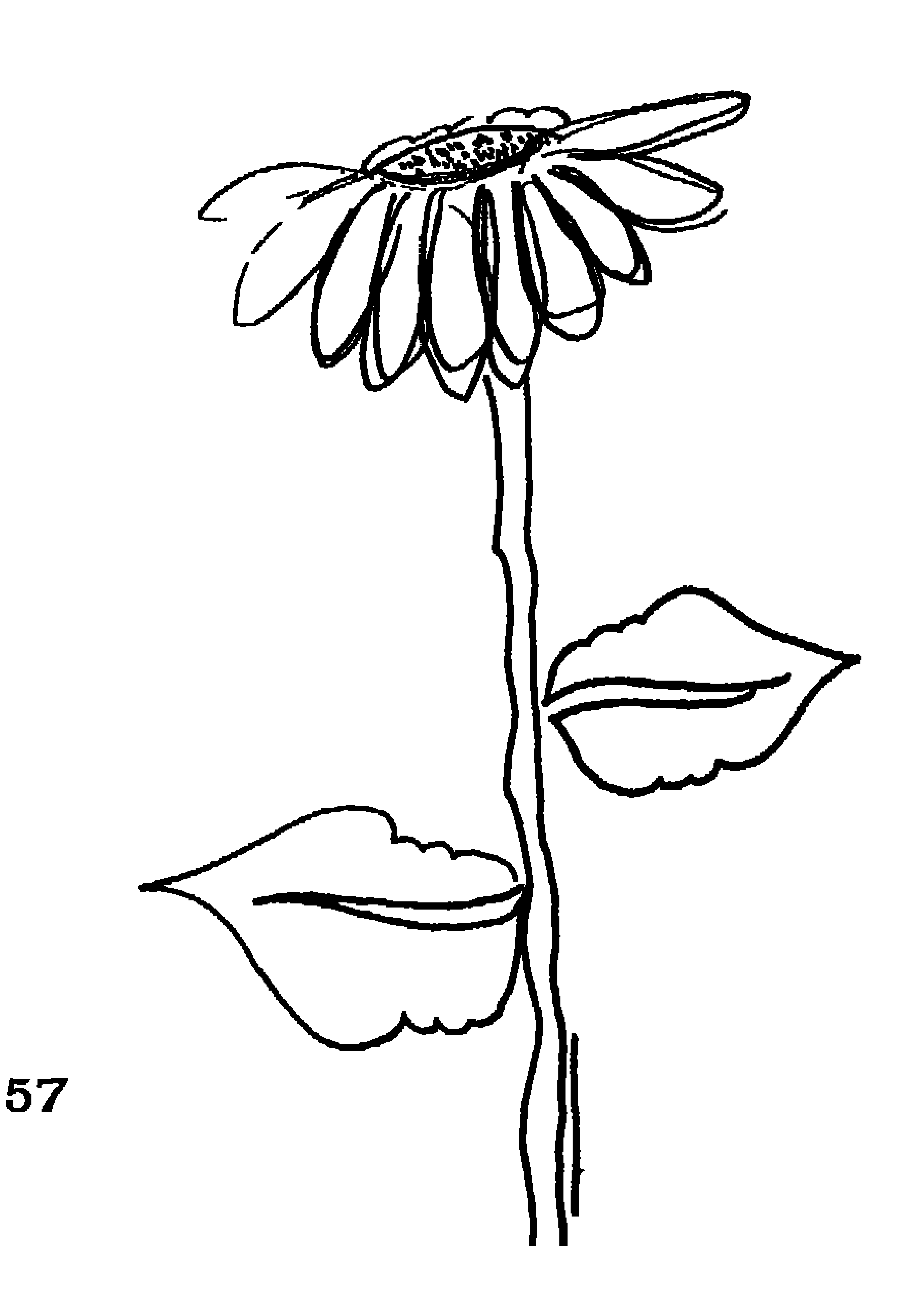


ويقول الكروان وهو يحلق

إلى السماءِ الثامنة:

مالنا في الغرام سوى حِيَل، كما الحواة

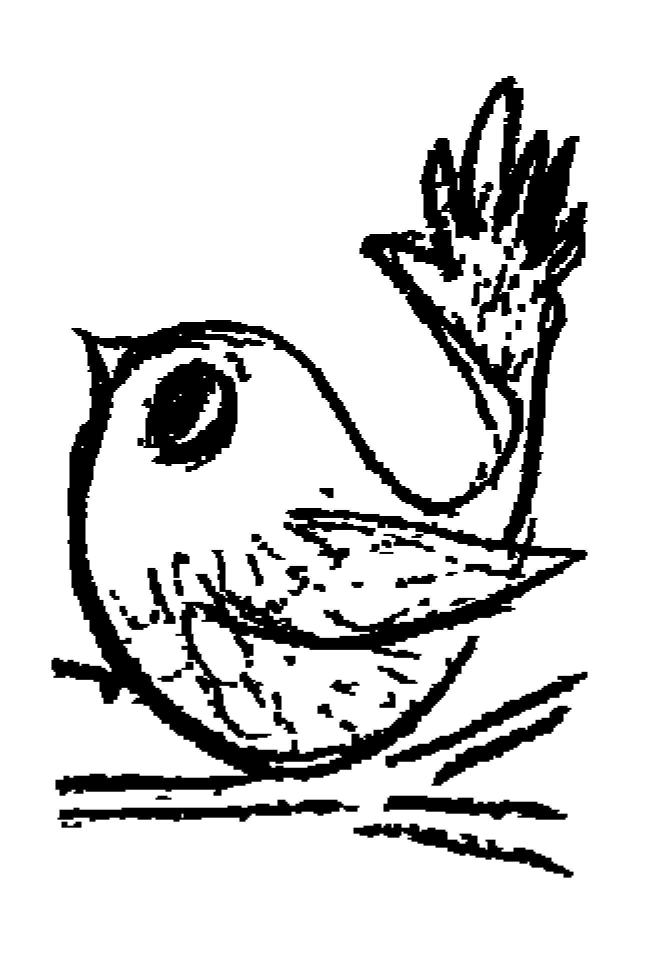
نحيكها، وتنطلي على الآخرين





البهجة

يا كروان الليل، حلِّق عاليًا إلى السماء السابعة، وآتني بالبهجة في قارورة عطر مصفاة من زهر نافذ فواح.. يا كروان الليل، تلك هي ترنيمتي الغرائبية السحرية التي ستأتيني بها.. إنها ترنيمة العاشق والمعشوق.. ولقد رأيته في السَّحَر يعتلي جواده.. يرفُل في الأبيض.. يشق رمال الحياة.. وها أنا الزرقاء أشهده بعين روحي.





أنت

زمان كانوا يسألونني: «من أين تأتين بالكلمات؟»

وكنت أقول لهم: «من عند بياع الكلام!!!»

واليوم إن سألوني نفس السؤال؛ سأقول لهم: «إنني آتي بكلماتي منك أنت!»

وسيغضب الكروان ويغار!

وسأعرف كيف أصالحه،

سأُصالحه بِك أنت،

فيكفي الكروان أن يعرف أنني أحبك؛ ليعفو..



فنجان قهوتك

فنجـان قهوتـك الـذي أعده لـك بيـدي.. ممـزوج بُنُّه بالأسـاطير المحشـوة بالحـروف والكلمـات والعبارات، أيهـا العجائبي، القادمة روحه مـن أرض الأحلام.. فنجان قهوتـك يغرينـي بالخيال لأَحُك فانوسًـا سـحريا مُعلقًا في قبو رأسـي، ويحرضنـي أن أطير بسـجادة غرائبية تحملني إلـى مـدن البهجة.. فنجانـك الآن بيدي أرتشـف من قعره أنفاسـك.. وحيـن قدمـت لك القهـوة، لم أنـسَ أن أرفقها بكـوب من الماء البارد يعينك علـى إنعاش قلبك الثائر من جديد!





على مقعد الروح،
رأيت كيف تطبخ الملائكة!

ساعات مضنية قضيتها مع سجلات تضميد روحي؛ للاستشفاء من أمور سيئة جدًّا، ومن معاقبة نفسي على أشياء فاشلة، حسبتها يومًا جيدة.. وساعات أخرى ممتعة قضيتها مع اكتشافي أن الطبخ يجعلني أكثر اتزانًا ويدفعني إلى التأمل.. وكذلك اكتشافي أنني أعشق الانغماس في الملذات الطفولية.. واكتشفت أيضًا أن صديقتي الحميمة شجاعة ذكية.. ووعدت روحي أنها سوف تضحك وتبكي وهي تروي تجربتها، رغم رغم!

ومن حكاياتي أن مقعد الروح يحملني إلى اللا منتهى.. فأنا الآن حيث السُّدة الأخيرة للنهر عند المنبع.. أجمع الثمار وألملم الزهرات؛ لأصنع سلال حب زهرية زاهية.. أنا الكروان، أرسل دعائي مع الريح وأحلق وأنفلت بروحي، حيث أغادر جسدي المُسجّى جميلًا على أريكتي الحبيبة ...

وحين أعاوده.. تكون روحي الظمآنة قد ارتوت.. فأعود لأطهو كيمياء جديدة على الكيمياء.. سأطبخ حبًّا مسحورًا بتوابل الحكمة الجسور.. سأطبخ كعكًا مخبوزًا بقشدة الصدق.. سأنثر على وجه المعكرونة اللذيذة شذرات من زعتر برية براءتي المحفورة في شجرة فؤادي، الذي طال عليه الأمد، وظل نقيًّا رغم رغم.. وسأقطف من أحراش غاباتي بعضًا من سلوكياتي البدائيات؛ لأطبخ بها عُشبة مُسكرة، اكتشفتها يومًا، كما اكتشف الهنود الحُمر شجرة الكاكاو، وصنعوا منها مشروبها اللاذع.. وسأطبخ أطباق اللهفة إليك، حيث سأخلدك فيها بعد أن أنتزع من تلك الحية عُشبة الحياة الأبدية، التي سرقتها من الملك جلجامش تحت الماء.. سأُحضّر أشهى أكواب البنياكو لادا الاستوائية بجوز الهند والأناناس، حيث تتأجج رغبة احتواء الرخ للكروان.. وسأنزع ما تبقى من صفحات مخطوطة أفروديت التي طالعتها في قبو عتيق بأثينا منذ مئة عام. حينها سأتوسد جناح الرخ الذي سيرتفع بي إلى جبل الأوليمب وسيعلنني رفيقة المدى.. وفي الأفق، ومن وصفة سرية للحب، سأعد مائدة أنزلها على شعب الحياة، وسأضع عليها من نبيذ الأيام قنينة لا تفرغ.. فالحق أقول لكم: إنكم ملح الأرض، ولن تفسدوا.. أعدكم، سأحفظكم في صناديق معزولة، لن تترطب بالغش والإنكار!



أرجوكِ، توقفي عن القلق مما يراه الآخرون

انظري إلى الوردة ولونها ونضارتها.. انظري إلى الضوء الذي يشع منها.. إنها مصدر الضوء نفسه!

أرجوكِ، لا تضيعي الوقت في القلق مما يظنه الآخرون، ولا تحسبي أن الحشائش الخضراء التي تكسو البستان تأخذ من نضارة الوردة.. إنهم يخطئون دومًا في تقييم الأمور.. إن تلك الحشائش تمنح الوردة روحها وألقها!

أرجوكِ، لا تنجرفي وراء آرائهم، ولا تقلقي، فعلى الرغم من أنها تأخذ الكثير من الشمس، فإن هناك دومًا المزيد من الشمس!

وإن حكمة القناة الهضمية البدائية للوردة، ونقاء الغرائز التي منحنا الله إياها، يمكنها تحقيق أعلى مستوى للحياة، فلا تقلقي يا دينا؛ لأن الله سيمنحكِ كل الأشياء، مثلما منح الوردة ☺

أنا بالأحرى كل الأشياءِ

كل الأشياء بجمالها هي روحي

وها أنا أناجيك؛ فأقول

بأنني وكأنني صندوق حُلي فضية ودرج أوراق سرية

أو ربما بالأحرى

عليّ أن أقول:

إنني وكأنني شُجيرة ليمون

وأعواد ريحان

وزجاجة عطر وردي

وثوب موشى بالفل

أنا بالأحرى،

رائحة البستان والفستان مطرز بالنجم ويلون الليلك وفيروز البحر

وعلى زرقته تتبختر روحي.

تتبختر كبلقيس على لُجة مرآة..

أنا بالأحرى،

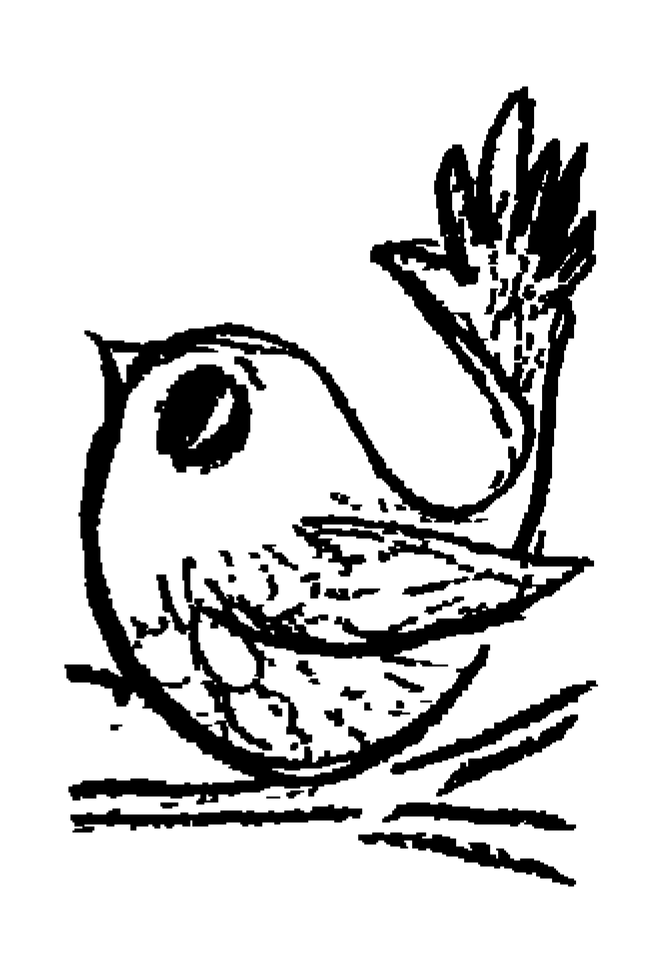
يا قلب،

على خدي زهر التفاح،

زهر يتورد حُمرة خجل، وفي عينيّ تتألق نظرة،

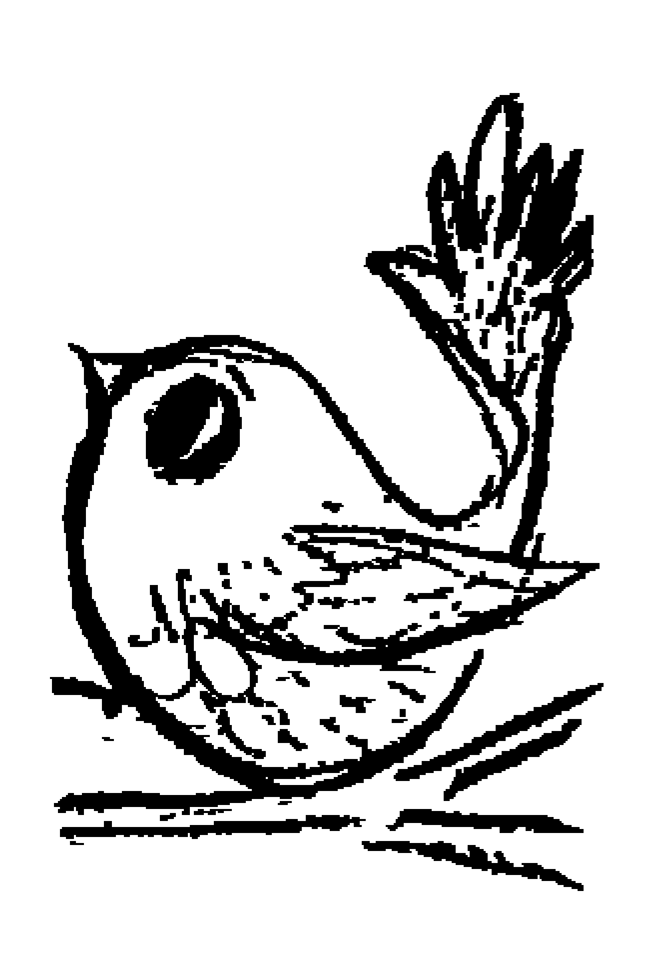
تتألق نظرة،

أنا بالأحرى كل الأشياء..



وتلك حكايتي في المُغرمين

أحلم بخصرِكِ المطلي بالأبيض، وعينيكِ المُكحلتين بالدهشة، وشاحنة نقل الورد عبر الكواكب في طريق الوصول إلى بيتك في الأفق.. كم أشتهي لحظَكِ حين سيلمح وردي ينسكب على قدميك عطرًا يصبغهما بالعشق.. تلك كلماته التي لم يكتبها حبيبي.. ولكنه الثائر في الغرام أُترجمُ لمح عينيه، وارتجافات بدنه، ورسائل كفيه بكفي..





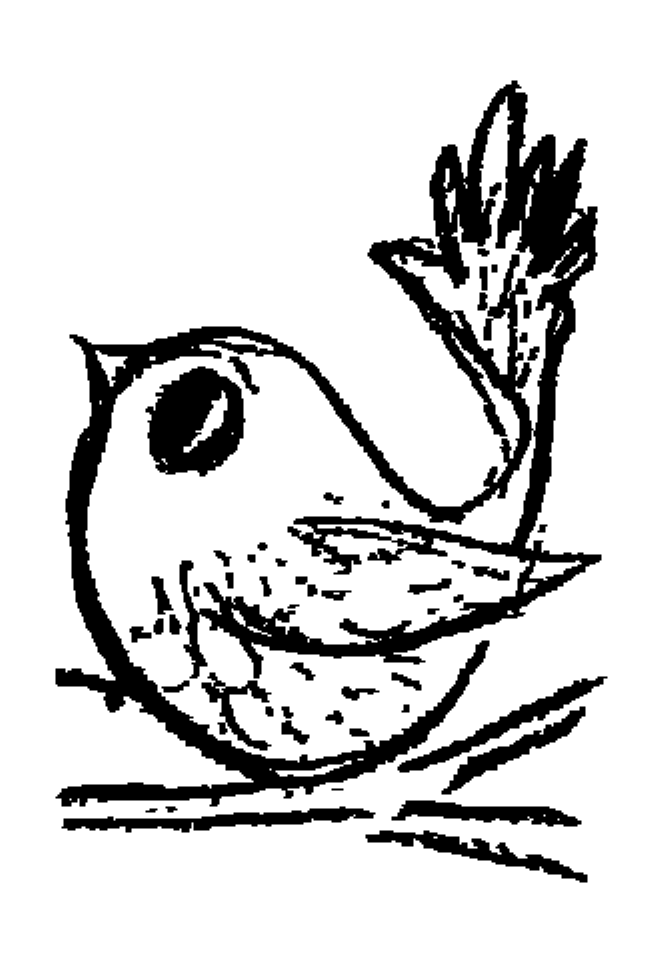
أيها البستاني صاحب الأيادي الخضراءِ

زرعتك ها هي، هنا داخلي، بعد أن بذرت حُبك حَبًّا.. ها هي تنمو في روحي وتتمدد وتكبُر في مواعيدها بانتظام.. النبتة تنتعش وبراعمها تخضوضر كل يوم و«تزهزه» بسقايتك..

أيها البستاني صاحب الأيادي الخضراء، استمع لما قاله الكروان:

إن روحك الآتية من مواسم البهجة، مُشبعة برائحة زهر البرتقال ونضارة الفراولة ونعومة الكرم..

هلُم وأقبِل ولا تُدبِر أبدًا؛ لأنك أنت ولا غيرك.



يا سيد الحكمة

أيها الماضي في سفرك الطويل

رغم الضنى والإعياء..

أنت يا من جئت بحكايات ما قبل الطوفان

سيدي الآتي من السماء

إلى تخوم الأرض

سأنقش اسمك على خاتمي

وسأنقش رسمك على وجه أيامي وحنايا قلبي؛

سأنقشه بقطعة عنبر وبخور قرنفل صنعته لك،

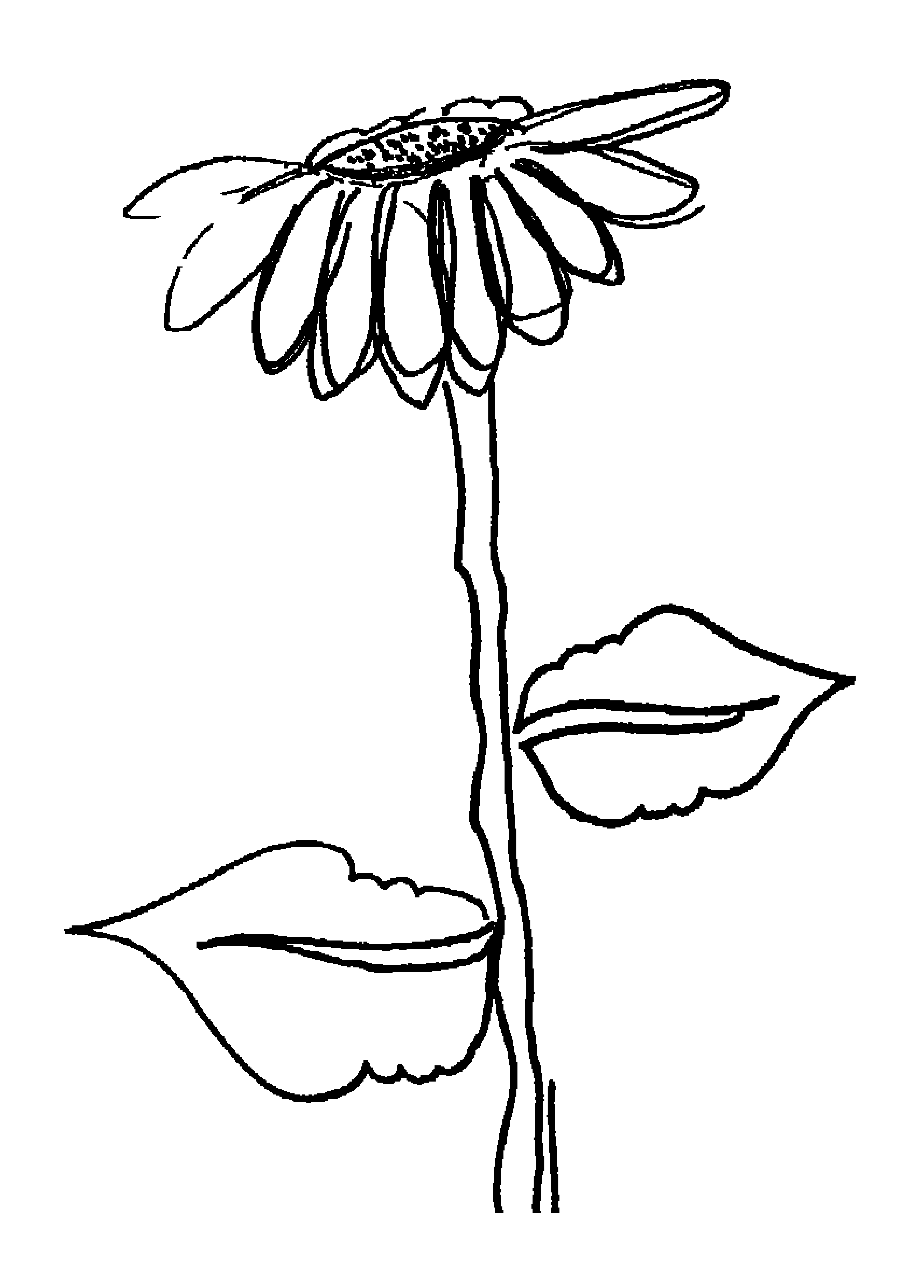
وحدك أنت أنت، أيها المتوهج إلى أبد الآبدين....

يا سيد الحكمة، يا من تحمل بين ثنايا قلبك خارطة ممرات جبال الغد؛ فتهزم وحشتها.

يا من نقبت آبار الخير في أرضي ومحيط عمري المترامي، حيث إشراقة شمسك تبدد أي غيمة

تقترب مـن صوتـي، حيـن أردد ترنيمـة نقائـك الأبـدي. أنــت أنت يا سـيد الحكمة، شـق طريقنا بعـزم يديك. عمِّر أرضي وابذر حُبك حَبًّا في حقولي المخضوضرات بمـاء طُهرك..

أُحِبُّكَ



في حضن الدنيا

قالــت صديقتي: اغمريني في مســراتك، ودعيني أحلق في الفضاءات وأجوب المجرات، وإن هويت، يا دنيا، ففي أحضانك لاقيني..

ها هي قبة السماء تحوم فوق الأرض؛ لتحميها لأجلك، أيتها المسرة الجميلة.



قالت صديقتي(*)

ويحكي الكروان أن صديقتي قالت إنها ليست سوى قشرة سوداوية دقيقة لروح فوارة أغوارها ببراكين سراء.. فأخبرها الكروان برؤياه حين كاد ينزلق إلى القمة المفخخة، كما انطلق جلجامش - ابن الإنتاج المشترك للإلهة الأنثى، التي جعلته ثلثي إله والثُلث المتبقي لابن الإنسان الفاني - في السعي الجشع للأبدية، وتنامي الحقد المتأصل الطامع في نبع نفسه.. فجلجامش كان يأكل.. يشرب.. يستحم.. وينهزم.. ولم يدرك سوى في النهاية أن أبدية الروح أبقى، حين أكلت الحية عشبته ورأى سور مدينته يلوح ليبقى تاريخه سر خلوده.. وعندها انفلتت حمم البراكين المنصهرة وتلاشت القشرة السوداء لتبقى الروح الفوارة السراء.

وقال لها الكروان: الغطاءات الرقيقات المُحكمات، كما أغلفة الحشايا، تحفظها.. أما الأرواح فإتقان إطلاقها يبهجها؛ فتعبر المسافات البعيدات وتتجلى بالأبدية..

(*) هي صديقتي «فدوى».

فلا أطواق ولا سلاسل ولا قيود؛ أسيادها الغيلان السوداء، يمكنها أن تكبل أرواحنا عن فورانها المنتظر.. والعنان المنفلت سرها الكبير بلا موات..

بالحب أشعر.. الحب يتملكني.. بالحب تنتصب روحي وتسمو إليك وتطوف حول ألوانك الوردية لتوقظ نسائم زهورك.

وقال الكروان: شوقي يتألق نديًّا، ويسمو طيفه الوردي حين تلاطفه بروحك وتوقظه بنشوة ويجزل وبفرحة تأخذه إلى جنة الحور دون نظريات في البهجة وخباياها.. فبهجتك تتلمسها زهرة منتشية وفجأة تنسحب تاركة ألقكَ يتسامى حد السماء السابعة؛ فأصحبها معي حيث قاب قوسين أو أدنى..

قالت صديقتي: أود أن أمضي وأن أمضي، أن أتشرد في عمق الليل، أن أمتطي صهوة الريح، أن أداهم الموج، أن أنغمس في محيط بلا قرار، أن أتوه في حي شعبي تلتحم فيه روحي بأحلام البسطاء وتنساني.

فقال لها الكروان معجبًا: يا ذات الاغتراب في دهاليز الحياة المظلمة بعد أن سئمت غربتك الجبرية وحظر التجوال الكوني رغم اتساعه.. ويا ذات التماهي الخصب

في مفردات الحياة، ما أجملك حين جعلتِ من فؤادك بئرًا فياضةً يرِدها ناس الحواري العطشى، هؤلاء الفقراء المحطمون الشاردون في الفلاة الواسعة..أنتِ الرحيمة ابنة الرحمة، فهنيئًا لمن قدمتِ لهم قلبك يقتاتونه؛ فينبت من جديد مزدهرًا بحدائق غُلبي.

قالت صديقتي: كم من إشارات بينات ترسل لنا الدنيا! كم من علامات جليات تزرع في دروبنا كي لا نقترف أعظم الأخطاء بحق أنفسنا، بحق أفئدتنا، كي نتفادى أروع حوادث الطرق في مسارات حياتنا، لكننا نصر على الارتطام بها ومن ثم نلعن القدر... يقول الحكيم: من أراد أن يعرف ما وراء القدر؛ عليه أن يتجاوز القدر!

فقال لها الكروان: قلبك العامر فيض نور وهوى.. فتوحات نورانيات تهل بسلام مع ظهارات القلب. تلك مسالك المسارات، رأيتكِ في الحُلم ترتادينها، وتجلين مزايا الروح.. فلا كِبر ولا رياء..

فلا حسد ولا كذب..

قالت: في ظلال ذكرياتي، في فسيفساء أحلامي، في نسيج أمنياتي، في متاهات أوهامي، في زوابع أحاسيسي،

فـي عواصـف مشـاعري، في شـباك أفـكاري، فـي مغاور الروح، في حواري القلب...

أنت سائد!

قال الكروان: والذي يرعى الكلأ مع الغزلان

ويرد الماء مع الحيوان

ويفرح قلبه عند الماء

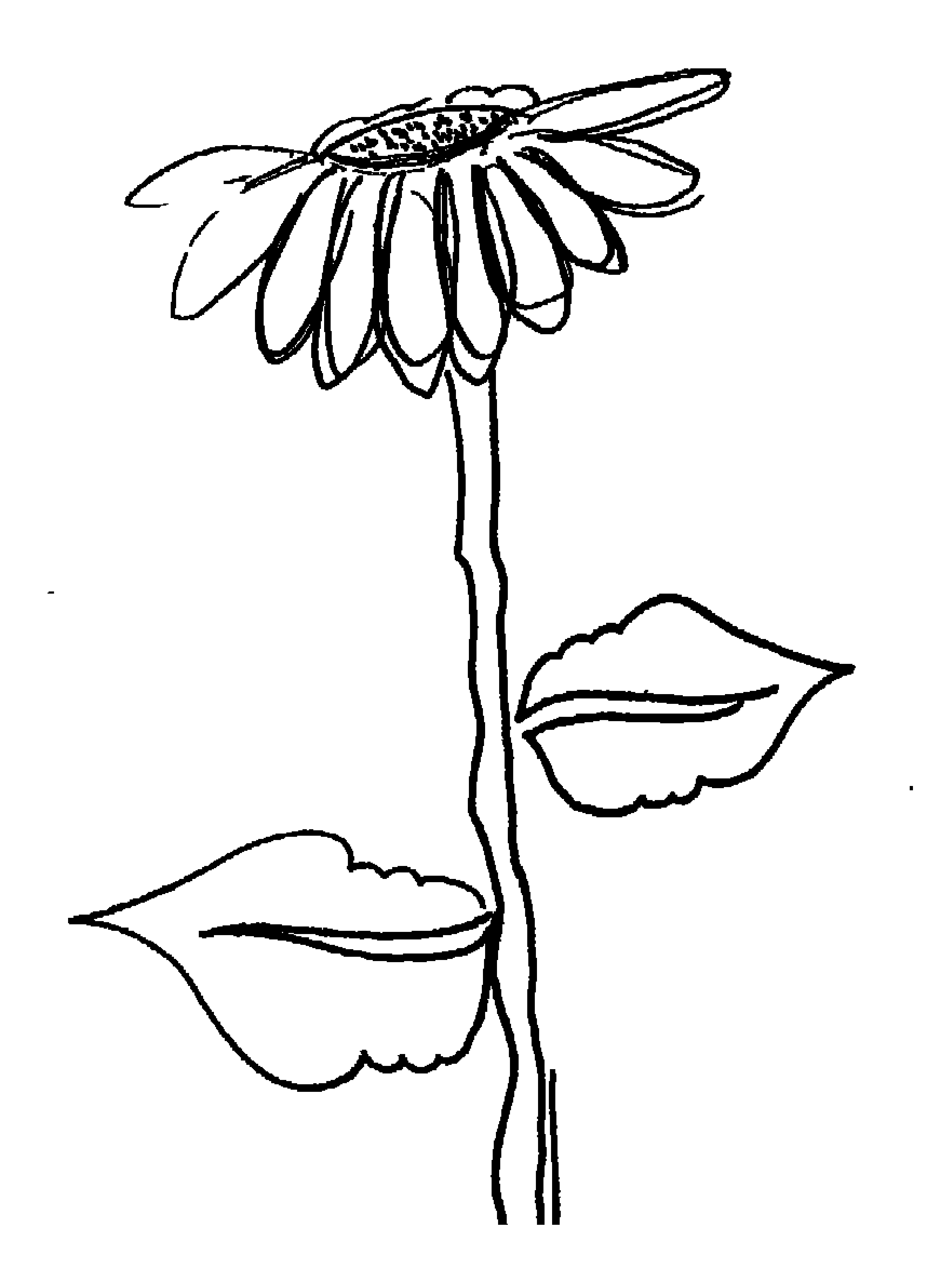
فقد وقع بصر المرأة عليه.. رأت السيد.

قالـت: كلما ضاقت بيني وبينه المسـافات، كلما اتسـع المدى!

فقـال لها الكـروان: فـي ليلنـا الـوردي وتجلياته مدى السـموات السـبع، فيـه أسـتلقي فـي دعـة علـى جناحـك المخملـي.. أعـرف أنـه سـيحملني إلـى مُلتقـى العـذب والملـح فـي الفؤاد السـاكن.. أعـرف أنه سـيدلل أحلامي وينسج من هُلامها أثوابًا وقمصانًا، وسيزرع حبي نخيلًا في بسـتانه، وأنني سـأرمح في بريته، ومهمـا ابتعدت الغزلان؛ تعـود لموطن الـكلأ.. لا متاهات ولا أوهـام ولا خرافات في ديـن الأحبة. إنه اليقين في الأفئدة.وبالمشـهد تتشـكل ملامـح أطيافه، ومن منتصفه يصدر نداءً خافتا بآيات مُرتلة

من حنـان، ينهمر بأنهار مـن اللذة لفقراء مـن أطفال جياع فـي الأزقـة، كان صـدركِ يحاصرني وتقاوميـه حتى رأيت مصرعه.

قالـت: لا صـراع ولا مصـرع بالمشـهد، وإنمـا حيـاة ممتلئة بزخم النشـوة الطيبة المشبعة، ونداءٌ حنون ورضي، ونـداءٌ خافت خفي.. ومتعة للناظرين يا أيها السـاكن بديار الكـروان والنائم في دمائه، يا من ناوله جسـده فلم ينكره.. ولن.. رغم رغم!



كم تمنيت أن أكون راقصة فلامنكو

ومن حكايات الغرام كان المشهد..

زهرات تجمعن معًا.. زهرات لهن لون السماء بزُرقتها الممتزجة بالأبيض الحليبي ولمحات تتداخل معهن من الأبيض الرمادي.. الأزرق الذائب في الغيوم المثقلة بالأمطار.. وها هن زهرات أخريات لهن لون البحر اللازوردي المتماهي مع الرمال الصفراء المزبدة وأشجار النخيل بأوراقها الخضراء وجذوعها البنية..

ما أروع سحرهن تلك البنفسجات والقرنفلات والوردات اللواتي لهن خصور ناحلات بانحناءات وثنايا جميلات.. تلك كُن راقصات الفلامنكو المتمايلات على النغمات الأندلسية التي يعزفها «خوان» على جيتاره والفتيات يرقصن بعنفوان ويضربن بأرجلهن على الأرض بشكل إيقاعي صاخب.. وكان هو يرقد على الأرض رافعًا رأسه لأعلى..

ما كل هذا الزخم والصخب المصاحب للجسد العارم الحيوية المنفلت الروح والمتجاوز الهادر؟ وما كل تلك

النعومة القوية؟ وما كل تلك الألوان الصارمة الحنون؟ وما كل تلك الضربات والدقات الناعمة على سطح لوحة الإحساس؟ وما كل تلك الانحناءات والاستقامات؟ وما كل هذا الشموخ والدلال؟

ألم أقل لكم إنني كنت أتمنى أن يعرف جسدي لغة الفلامنكو؛ ليصبح شفيفًا متعافيًا، وأن ينهض قلبي المُتعَب برقصة تداوي آلامه وتتسع معها شرايينه الضيقات على الإيقاع المُتقن.. الموسيقى والجسد المتحفز.. البدن اللدن المنتصب كرُمح.. الجسد الذي يخطو على الإيقاع القوي الناعم كحلم..

وها هو أحمر الوردة في الشعر والثوب الضيق الفضفاض كالحياة الضيقة على اتساعها.. والأمر الموثوق منه تمامًا هنا أن الرقصة وموسيقاها والراقصات جزء من منظومة الرحابة الكونية في اللا زمان واللا مكان حيث ألق الحق والخير والجمال.. وما الرقص إلا لغة جسد حُر، ينطق، يصرخ، يغني، ويعزف موسيقى البدن..

آآآه.. كم تمنيت أن أكون راقصة فلامنكو، وكم تمنيت أن أحمل طاقتي وألقيها بقوة ضربة قدمي على الأرض، وأن أحمل نعومتي إليه نغمة كالعطر تسري.. كالمُنتهى.

إنني أحكي في الغرام حكاياتي

«المُلـك لـك لـك لـك، يـا
صاحب المُلـك» صـــــدح
بــــدعــائه مُحــلِّـقًـا..

إنــني أغار منك، وأنت كل صباح تنشـد محبتك لربك، وتتقــن لغة غرامـك، أعترف أني خجلان وأنـا أقول: ليتني أنشـد محبتي لمــن أحب مثلك، ليت لغتــي تصبح في بهاء غنائـك، ليــت حبيبي يســمعني، أنت موفور الحظ، تسبّح لـرب يعرف مهارتك، أنا خجلان أن أقول: ليت حظي مثل حظك.

***

في الفجر
في الأبيض اللا متناهي
فتحت نافذتي
وجدت تحتها
زهرة بيضاء

وسرى نسيم عذب

أنشد العندليب أنغامه

***

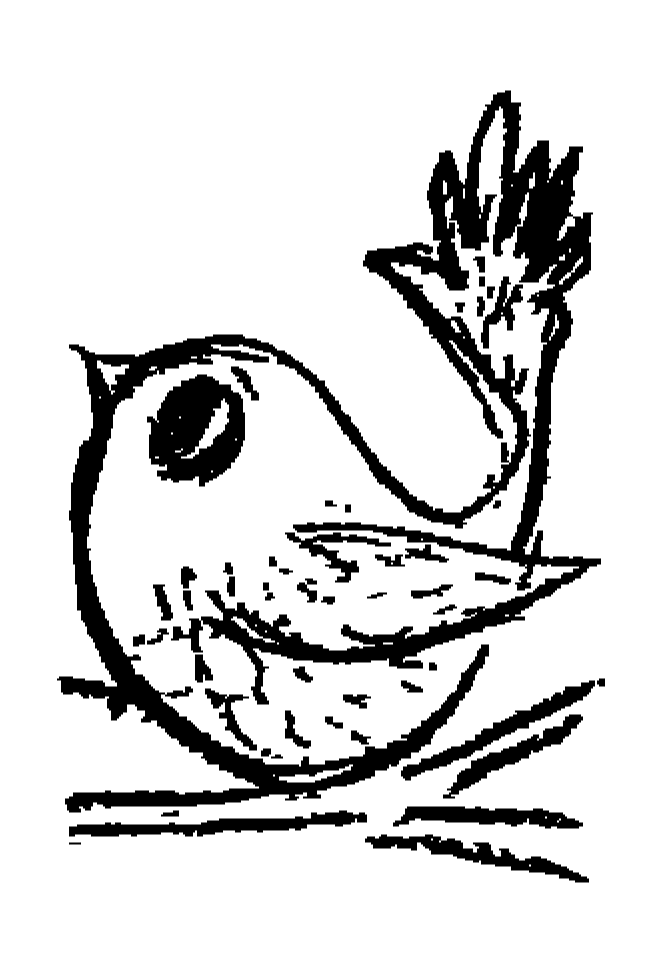
وما الصلب سوى خلاص يا عمري

والروح تهوى من يُخلِّصُها

وليكن اسمك للأبد حصادًا لحبي..

***

الطير والأناشيد والمزامير لأجلك.. ولسوف أبيتُ وبين أصابعي قميصك أُوشيه بخيوط أشواقي.. ومن بلح النخيل أصنع لكأسك عرقًا نشربهُ في ليلة الرؤية، حين أنظُرك تحت سماء لم تشهد من قبل أجمل من طلعتك حين تهلُّ على روحي.. لك السلام وعليك السلام.




DinaTawfick
2013

عندما دخلت قلبه

قالت له:

هل تعرف ماذا رأيت حين دلفت من باب قلبك؟

نقرت نقرتين على الزجاج المخربش المثبت في الشُّراعة وكنت أحسبه موصدًا، ولكنني ما إن استندت بيدي أنتظر الاستجابة حتى وجدته مواربًا؛ فانفتح وأطللت..

قال لها: زيديني..

قالت: رأيت ردهة صغيرة تقود إلى صالة وسيعة بيضاء الحوائط وتتدلى من سقفها ثرية..

قال غاضبًا: وما حظي من كل هذا؟

قالت: إنه قلبك الذي لم تدخله أنت من قبل، ولم تره مثلما رأيته رؤية العين.

قال: الملتصق بالحشا.

قالت: وعبرت الردهة، وحين توسطت المكان.

وكنت في حيرة من أمر قلبك..

قال: أشم ريحًا يبشر بخير..

قالت: لم أر أي زخارف ولا بلاطات منمقة، وكنت أظن أن الزخارف تسكنه..

صدقني لم أتوقع كل هذا البياض الفائض..

ومشيت، وكانت خطواتي مرحات.

قال: أنت حبيبتي رغما عنكِ..

ابتسمت بدلال يحمل كل المعاني معًا، كأنه كوكتيل بهجة مصفي اختلطت فيه المذاقات..

ثم قالت له:

كنت وكأنني أرقص،

وكأن أرضية قلبك تداعب قدمي،

فكنت تارة أتضاحك وتارة أبتسم

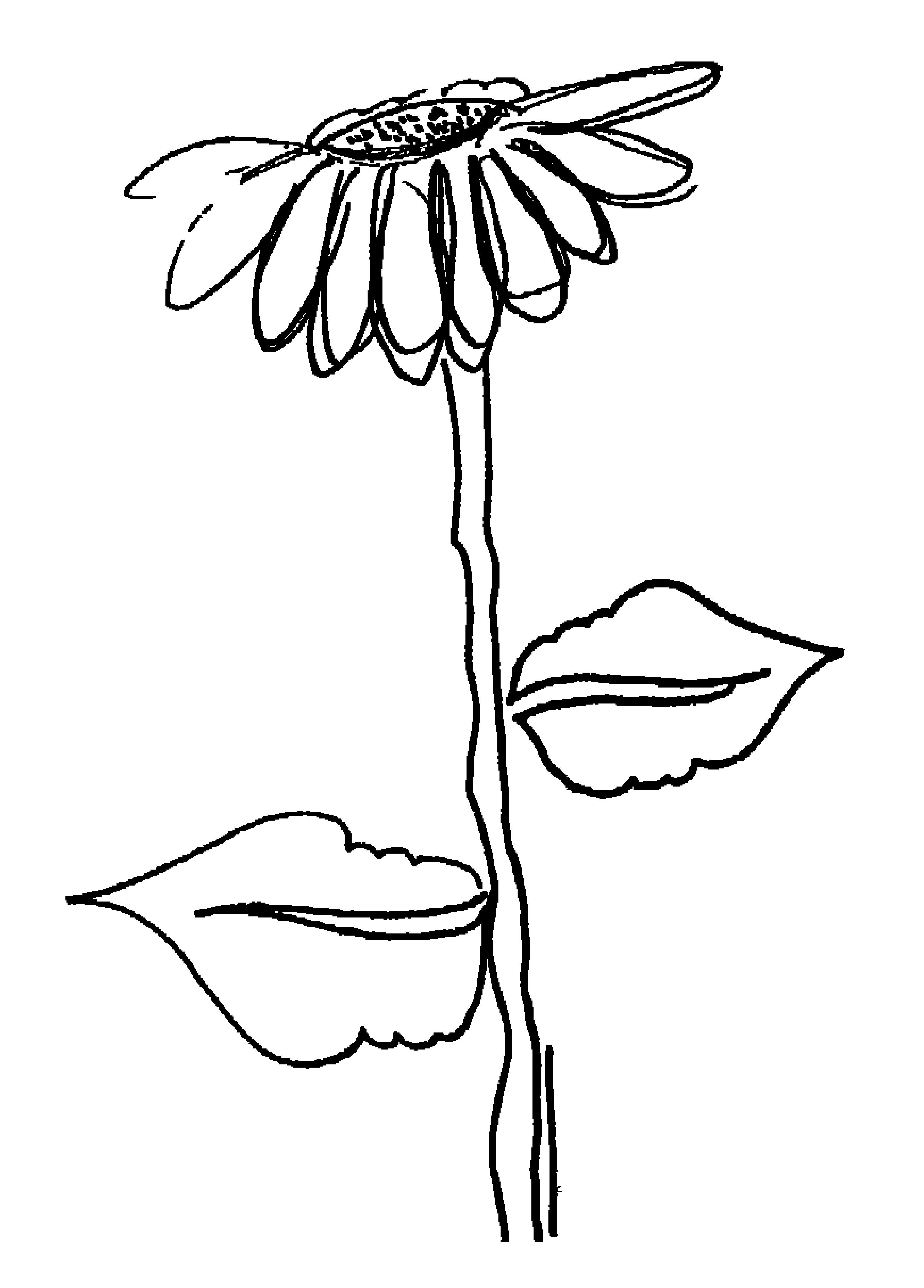
قال:

زيديني..

وتتيه بدلالها وتقول: «وما إن وصلت إلى الشرفة حتى».. فقاطعها بقبلة بعمق حبه وقال: «أُحبكِ»؛ فقالت

بصـوت مُنغـم: «.. حتـى شـهدت مـا لا أذن سـمعت، ولا خطـر على بال بشـر.. كانـت الشـرايين النابضات كما الأنهار والأوردة مزهرات».

قال لها: «تقتربين من قلبي أكثر»؛ فأجابته بشهية مغرية: «إنني قد دخلته».



رأيتُكِ في الحُلم تجلين مرايا الروح

قلبك العامر فيض نور وهوى

وفتوحات نورانية تهل بسلام مع طهارات القلب

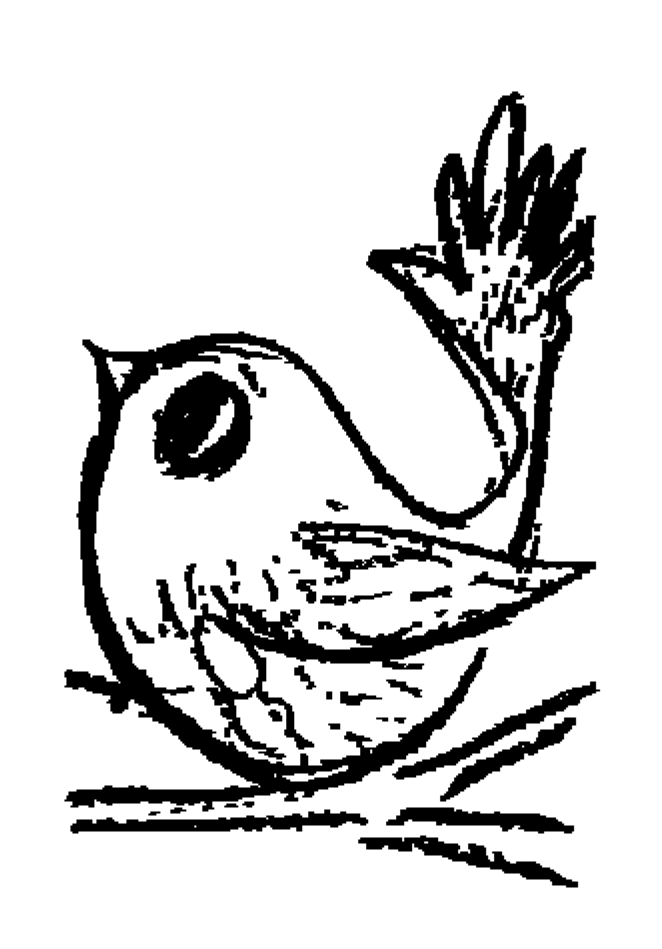
وتلك مسالك المسارات.

***

رأيتكِ في الحُلم ترتادينها وتجلين مرايا الروح

فلا كِبر ولا رياء ولا حسد ولا كذب

أنتِ أنتِ روح سالمة، وتلك إشارات للتحول.





من أجلكِ سأزرع بستان ورود

الكروان: «من أجلك سأزرع بستان ورود، وسأُنبت في أقصى البستان شُجيرة ياسمين، وسأنسج لكِ من طرفها عريشة تنامين في أحضانها وستتلقفك زهراتها يُهدهدنكِ، ويُسمعنكِ موسيقى الزهر التي لم تسمعها إحداهن من قبل، وستنامين وفي أنفك عطر الجنة، وستحلُمين به قادمًا مستقبلًا جوادًا يبني لك قصرًا من الهوى... وتعيشين معه أعذب حكايا الغرام؛ لأنه هو هو وحده هو».

يقول الساحر:

ها قد كذب عليكِ الكروان،

لأن مثلك لا تؤخذ مثل النساء،

ولأن الله حين خلق البستان كان أرضًا جدباء،

فمسته روحك في زمن ما،

في مكان ما،

فكانت العريشة والزهرات والعطور،

لقد كذب عليكِ الكروان،

وقال الساحر أيضًا بشوق: لقد أقسم البستان،

ردًّا للجميل أن يقاسمك صفاته،

وهنا مكمن اللغز،

فكل ضحكة من عينيكِ،

وكل نأمة من شفتيكِ،

وكل لفتة،

استرخاءً أو شغلًا،

هي بستان يفر إليه العُشاق،

كُتِب على بابه: إن كل شكوى يُحكم فيها بالمحبة،

ولا يُضار عاشق بهواه!

قال الصديق المُقرب: عذرا صديقي،

هذا الكروان من مخلوقات الجنة

الكذب يستحيل عليه

لو كذب هذه المرة

فما بال حكاياه وترنيماته السابقة والآتية؟؟

لا أقبل أن أصدق هذا

هذه الصفة (الكذب) لا تعيش في الجنة.

***

لا تحزن يا كرواني العاشق الجميل

فكم أعرف أنك لا تنطق إلا بالترنيمات الإلهية،

يكفي قولك:

الملك لك يا صاحب الملك

أفمثل هذا يكذب؟!

قال الساحر، وفي القلب ما في القلب:

في نهاية الأمر لم يأتِ بجديد لصاحبته،

أن يزرع لها بستانا

وورودا وشجيرة ياسمين،

ويبني لها عريشة تستظل بها،

كل هذا فعله العشاق الصغار،

واعلم أن العشق درجات،

فلا نستطيع أن نقول إن صاحبته لا تستحق،

لأننا نعلم أنها هي ذات نفسِها بستان يستجير به العشاق،

إذًا صديقي،

لا حل غير (وأؤكد ذلك) أنه يكذب،

أو على الأقل ضل الرؤية،

فغابت عنه الحقيقة

ويرد على الساحر الصديق المقرب: صديقي العزيز

ما ذنب الكروان؟

إنه ليس العاشق

ليس المُحِب

إنه الرمز

هو من يسعد لسعادة صاحبته

ولا دخل له بما يفعله العُشاق

إنه الخير والسعادة المطلقة

ليس له فيما يفعله عشاق البشر

فلهذا يا صديقي

هو كروان الجنة.

وهنا قلت أنا صاحبة الطير:

الكروان، هو من يأتيني بالحلم.

يقول الساحر العاشق:

كيف يأتي لها بالقليل وهي الكثير؟

من أجلك سأزرع بستانًا،

كيـف وهـي الأرض الممهـدة للعشـاق يقيمـون عليها حدائقهم،

عطاياه لها قليلة يفعلها أقل العشاق درجة

قال الصديق المُقرب: الكروان يقول ما يشاء..

وتحلمين ونحلم معك كُلا من شرفته.

***

(راح الكروان وحلق بعيدًا إلى السـماء السـابعة، وأتى بأيقونة عمري التي ألقاها على فراشي؛ فصحوت ووعدني أن يسـكن شـرفتي وأن يبيت فيها كل ليلة دون كلل أو ملل وأن يكون لنا سمر وحكايات)

قلت: ياصديقي،

واعلم أن الصداقة في المحبة كنزٌ لا يفنى،

سلمت محبتك،

فمن دخل الجنة صديقي،

لا يحلم إلا بسماوات

وأنهار تجري من تحت الأراضين،

وماء كالعسل.

فيقول الساحر:

القادم إليك على رأس قبيلة من المحبة،

بين يديه أمة من الحروف،

كل حرف لا يحُد حلمًا

ولا يستطيع وصفه،

يقول الصديق المُقرب:

كيف يدخل الجنة ثم يعود

ويحلم

هل سيكون هناك حرمان أيضا؟

ويرد الساحر بعشقه المعهود:

أكاد أجزم بيني وبين نفسي،

فقط لا غير،

أن الله كتب علينا الأحلام،

حتى لا تكون هناك قطيعة بيننا وبين الجنة،

الجنة موطننا الأصلي،

وأن الأحلام فرَّت من الجنة تغاطفا معنا،

نحن الجنس البشري، صديقي،

لا أشكك في الكروان،

لكني أشكك في حلمه،

في رؤياه،

وأخاف أن أقول:

في تفسير صاحبته،

وأعلم أن تأويل الرؤيا علم لا كتاب له،

إنما هي موهبة من عند الله، يا صديقي،

أبعدك الله عن الضلال في الرؤيا،

وأبعد عنك الحُكم بالهوى.

فيقول الصديق المقرب:

ولقد وعدها الكروان بغرام لا كلل ولا ملل فيه،

قلت أنا صاحبة الكروان:

الحلم الذي ننتظره هو خديعتنا الكبرى،

فلا حلم خارج أجسادنا وأرواحنا،

من أرواحنا وقلوبنا تخرج أحلامنا،

روح الحب المطلق هي عجينة أجسادنا،

لا يحمله إلينا طائر قد يضل طريقه إلينا،

روح الحب هي وصولنا إلى الكمال

في سعينا إلى المحبة.

يقول الساحر:

ليتني أجيد التحليق،

هي درجة من درجات العشق،

المحب درجته العليا هي التحليق،

إذن صديقي،

لا داعي للكروان لينسج لنا أحلامًا،

أحلامنا في قلوبنا،

في أجسادنا،

في أعيننا،

كل من بمحبته

ودرجته في العشق

يستطيع الطيران؛

ليبلغ درجة قصوى من الفرحة.

وكان أن قالت صاحبة الكروان:

المحبة من قلوبِنا

المحبة في قلوبِنا

لا يعرفها ولا يدركها إلا أولو العزم من العشاق

العامة يقولون:

العشق: رجل وامرأة

المحبة: رجل وامرأة

الخير: رجل وامرأة

الأرواح: رجل وامرأة..

ولكن الكروان يعترف أنه ليس هو العاشق.... الكروان ليس هو المغرم.....الكروان لم يعِد أحدًا، لا بغرامٍ ولا بعشق... الكروان ليس بإنسان.. الكروان هو روح الخير... روح الحب المطلق الملائكي...

كل منا بمحبته ودرجته في العشق

يستطيع الطيران،

ليبلغ درجة قصوى من الفرحة

المحبة من قلوبنا....

المحبة في قلوبنا.....

لا يعرفها ولا يدركها إلا أولو العزم من العشاق.....

المحبة في قلوبنا..

المحبة من القلب إلى القلب،

لا وسيط ولا مبشر،

ويقول الجواهري:

عاطي أريج الروض ماء السما

ما لا تُعاطيه كؤوس الرحيق

وبات إذ حط بها ثقله

يكلف الوردة ما لا تُطيق

قلت:

وأنا لن أكلف كرواني ما لا يطيق ولن أمنعه..

سأتركه حُرًّا طليقًا، وربما كذباته البيضاء

أحيانًا تأتيني وكأنهن إشارات السماء..

هن كاذبات بنظر البشر

لكنهن الحق بميزان الفؤاد

فيقول الساحر(*):

(إن محبتي من صنع روحي، يا شريكتي في المحبة، وشقيقة روحي، وهذه قناعتي، لا أقبل لمحبتي أن يحملها كروان قد يضل، أو طائر صباح قد تخدعه بعض الغيوم، محبتي رسولها قلبي، تبشر بها روحي، تنسجها أناملي، لا يحمل تميمتي إلا هوى قلبي، وورودي في قلبي لا على أرض قد تجدب، محبتي لا يحملها طائر قد يفقد جناحه، أو يسقط من دوامة في الريح، أئتمن على محبتي قلبي، هل من المعقول أن يحملها طائر، فيظن بعض البلهاء أن محبتي من صنعه، كلا، صديقتي الكبيرة في المحبة، محبتي من صنع روحي).

(*) الساحر هو الشاعر الجميل علي بدر الذي بادلني الكلمات بالكلمات ☺



الجزء الثاني





في الميدان

إنه صوتي يجلجل في صدري: سأُغير نظام الأشياء..

ها قد ولِدتُ في البرية وصرت الأقوى..

وسمعتك بصوتك الجهوري تقول لي: تعالي يا حبيبتي.. دعينا نذهب لنرى الميدان، وفي الميدان ستنجلي روحك وسأجمعك بجسارة، أنتِ أيتها الروح المُقدسة الهائمة، امضِ إلى المنبع حيث يزهو الناس بأثواب العيد..

وتأتي النبوءة: كل يوم من أيامنا سيكون عيدًا.



سنذكر الحب باسمه السري

إنه الرائي كل شيء..

الواصل إلى تخوم الدنيا..

العارف بكل شيء

وبكل شيء عرفته..

فمضينا معًا في سفرٍ..

يصدح الكروان في الفجر..

المُلك لك لك لك، يا صاحب المُلك..

من صلصال كالفخار صنع الخلائق..

سر صنعته أنني أراه

في جُنح الليل،

أُناجيه باسمه الأعظم..

أتلمس عتباته،

أبكي، وأكون قاب قوسين أو أدنى..

أقترب..

أجوب بساتينه ومروجه..

إلى سمائِه اللازوردية أُحلق،

وفيها أرتل صلواتي..

هو الفارس المؤتمن..

وكما أتت من حكايا عشتار،

وأساطير جلجامش، تلك الصخرة الجبارة..

الطوفان الصاخب الذي يهدم الأسوار الصماء..

ويقتل نسل البقرة ويشق ممرات الجبال.

ويفجر الآبار في سفوح المرتفعات..

هو المحيط الهادر والبحر المترامي..

هو أشرقت شمسي معه..

هو السيد البعيد..

من ارتاد الحياة واسترد الأرض فعمرها..

هو ليس كمثله ملِك في أي ملكوت..

هو الحق..

الدُّعاء في ليله الحار أيقظ الرُّكام؛

فاعتلى سُدة الكون..

وكانت الروح بالروح

في اللا زمان واللا مكان..

هو القوي..

هو الحكيم..

والدعـاء له الآن صاخبٌ فـي الفؤاد، ومجلجلٌ في اللا زمان..

لقد توضأت بمائه..

وها هو قد جمع بقبضته من الطين الطاهر حفنة..

شكّلني؛ فاستبانت ملامحي،

وهُيئت له،

وبخمره ناداني..

جذبني وراءه،

نجري،

نبتهج.

وسنذكر الحب باسمه السري.



«من نشيد الإنشاد»
أيتها الجميلة بين النساءِ

أنتِ يا حبيبتي

فرس في نجم يخوض السماء..

حبيبتي، ما أجمل خديكِ

ما أجمل عينيك، فهُن نهر العسل..

حبيبتي، عنقك الناهض كشجرة منتشية،

وسأقضي العُمر تحت ظلكِ..

حبيبتي، في يوم اشتهيت أن أجلس، والثمار الحلوة تتدفق من فمك..

اشتهيت أن أحتضنك وأعانقك، وأن يكون كل غنائي لأجلك..

وها هي الأغاني تتقافز وترقص أعلى الجبال وعلى التلال.

حبيبتي كالظباء حُرة، يلاحقكِ الصيادون..

لا تحزني يا حبيبتي، يا جميلتي، فالشتاء قد مضى والمطر زائل، والوُريدات ظهرت في الأرض، وصوت اليمام سُمع هناك.

وسأغني لك من «نشيد الإنشاد»:

حبيبي لي، و أنا له الراعي

إلى أن يفوح النهار وتنهزم الظلال..

العين طرفة، والقلب ومضة،

والروح رفيف رهيف،

والجسد موجز..

رأيت يا رائي..ولتشهد

أن الحرف كوني،

والنور كوني.

حبيبي لي، وأنا له الراعي.

ناداني،

جذبني من يدي،

التقف بدني،

قال لي:

لنبتهج، و نذكر الحب باسمه.

ثم قال لي:

هـا أنا أنظر الـوادي حقلًا يقود إلى الأبدية، وسـأقضي العُمر معكِ.

حبيبتي،

كل غنائي وثماري لأجلك.

لا تحزني يا حبيبتي، فالشتاء قد مضى،

والمطر زائل،

والوريدات ظهرت في الأرض،

وصوت اليمام سُمِع هناك.



ليس كأحزانكم

أيهـا الأحباء، الحقَّ الحقَّ أقول لكم: إن حزن الكروان لا يشبه أحزانكم؛ حزن الكروان تنبت منه زهرات فاقعات اللون، رائعاته، زاهيات بماء الدمع الدافئ؛ حزن الكروان كما السحب يرسم لوحات ناضحات بالرؤى، قد يحسبها الناظرون متعة؛ وليس على العميان حرج.

....

بكيت!

....

النحيب يعلو ويتلوه دعاء:

يا صاحب العز والسلطان..

يا ملك، يا جالس على عرشك في قدس أقداسك..

في ملكوتك، والصولجان في يدك.

وحدك تأمر: كُن؛ فيكون..

واحدة من رعاياك تتألم يا إلهي،

يواسيها طائر الفجر الأدهم الطيب الصادق..

قال الكروان: إنها بداية نوبة اكتئاب قوية،

أعرف إرهاصاتها جيدا، فهي صديقتي المؤلمة..

سأستعين عليها بالضحك،

بقلب نازف يعلو صوته؛

ليغطي على النحيب في العمق،

وزيارة غدا لمكاني المفضل؛ لأحصل على قطعة موسيقى

أو كتاب يسد مكان النزف.. رغم رغم!!

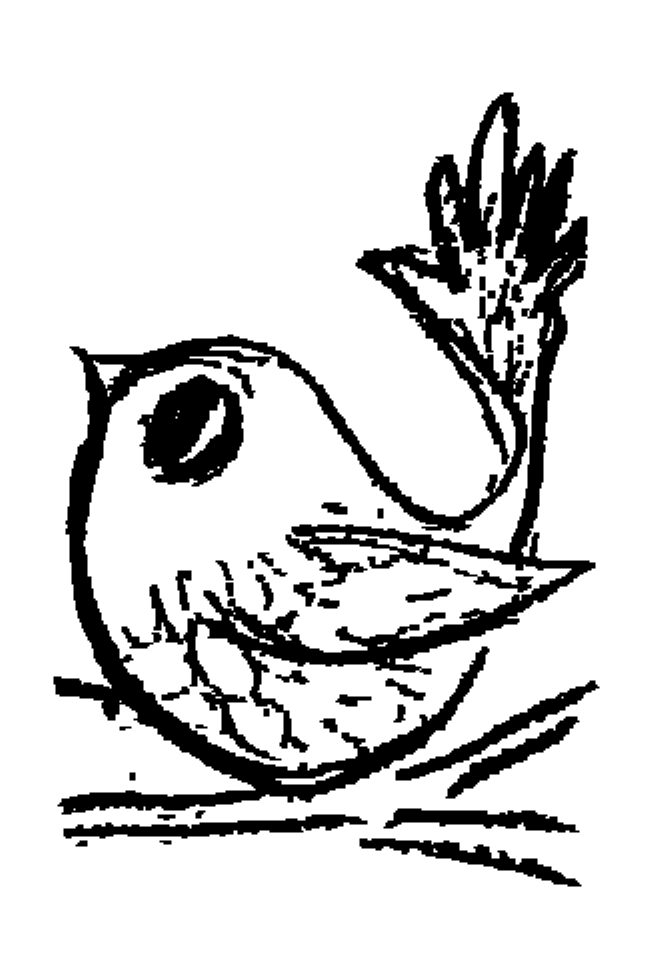


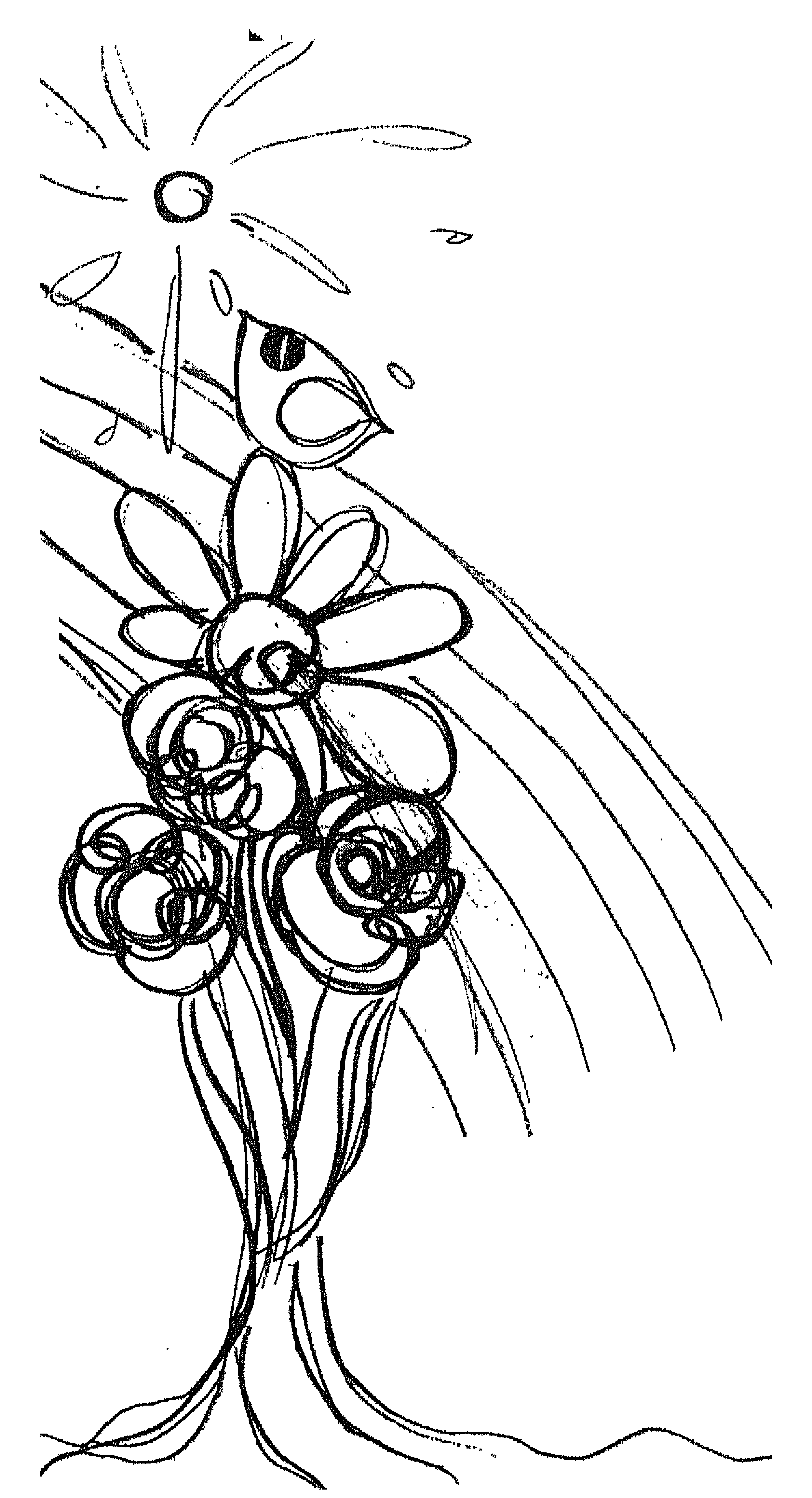
سنرقص سوياً يا صديقتي

قالت صديقتي الحميمة: وقد يحدث أن تقضي العمر وأنت تلهث وراء حلم أو فكرة، نجمة أو زهرة، إلى أن تدرك أنك كنت ضحية زمن راوغك بسراب؛ لكي يسلب منك ثوانيك وساعاتك، ثم يتركك وحيدا في عزلة خارج أعتابه، كمثل ريح أغوتك بموعد للرقص ولم تنتظرك، كمثل ريح داعبت حواسك ثم مضت مخلفة وراءها الروح في يباب..

وقال الكروان لها: سأقضي العُمر.. رغم رغم!! أنحتُ حُلمي وحلمك، وسأُحلق نحو النجمة الشاخصة في اللا مكان، وسأنتظر اللا زمان لأعبُر نحوه بجسارة، وسأقتنص الثواني والساعات، وسأصحبُكِ معي إلى خارج الأعتاب، نحو الجنة المزخورة للموقنين، وسأحُث الريح لتصفر، وتنقلنا إلى الحلبة الراقصة على سطح الكوكب، وسنُراقص معًا أميرنا الصغير... هههههه، لا، سأترك لكِ أنت، صديقتي، الأمير الصغير، وسأجعل «دينا» تُراقص ذاك الطيار خالق أسطورة الأمير الصغير؛ فأنا أعرف أنها

مفتونـة بـ«أنطـوان دوسـانت أكزيبـوري» منذ زمـن بعيد. ذاك الرجـل الـذي حلم بـأن يظل طفـلًا عمره كلـه، وتألـم من كذبـات الكبار البيضـاوات أحيانًا، السـوداوات غالبًا. ستُراقصه رقصة طفولية ممتعة، وسـأراقص أنـا الكروان، زهرة الأمير الجميلة، وسنطير ونحن نرقص معًا، وسنتقافز بين الكواكب، وسـآخذكُما أنتِ و«دينا»، يا «فدوى»، على جناحـي، وسـنخترق كل الآفـاق والسـماوات، وسـنصل إلى السـماء الثامنـة، حيث ستُمتعنا الملائكة بموسـيقاها وترانيمها، وسنلتقف الجواهر من تحت العرش عقيقًا، يفك الضيق، ولازورد يُبحر في المسـرات، وكهرمان، ومرجان فاقع لونه يسُـر الناظرين، وسنحُط على شُرفة «دينا» بوسط البلـد؛ لتُعد لنا شـايها الأخضـر، وماجّات النسـكافيهات، وقطع كعكاتهـا المعجونات بالصفاء فـي حضرة وريداتها وفُلاتها وياسميناتها، وسيروق القلب وتنفلت الروح.





الجُزرُ الوردية

قال لها: إنك تأتينني من الفكرة التي تؤلمني،

إنني الآن أريد أن أمتص رحيق شفاهك،

وأصنع به غطاء قبري!

دعيني أُقبلْكِ لنهاية روحي،

حتى تطمئني أنني عبد روحك لا صدرك..

دعينـي أدفـع فديةَ الشـكِّ عُمْـرِي يقينًا لبُرهـة حب في جزرك الوردية!

الجُـزر الورديـة.. بيت الكـروان المفـروش بالمخمل والمحفوف بالورود والمُعطر بالياسمين..

وعند الفراق سـيقف على شـاهده الرائع، وستنسـكب دموعـه، وتروي قصة الطهر القابـع في العمق، رغم العبث الظاهر..

الغـرام الأسـطوري سـيخلد الكروان، وربما سـيمنحه بسخاء جزل رحيق الحياة الأبدية.

سِحرٌ في المعبد

في ليلٍ طويل،

أنامل بارقة في العتمةِ تتسلل..

قال الكهنة في فزعٍ:

انقلب السحرُ علينا..

ارتعب النقشُ على الجدران،

وانحدر الدمعُ.

قالت: أين أنت يا «عوليس»، لا أراكَ..

أشعر أنني في قلبِك،

تلمسُني..

ولا أراكَ.

«بانلوب» تحيكُ الثوبَ بمغزلِها وتبكي..

قال السحرة: سحرٌ يأكُلُها،

ونحن مكتوفون.

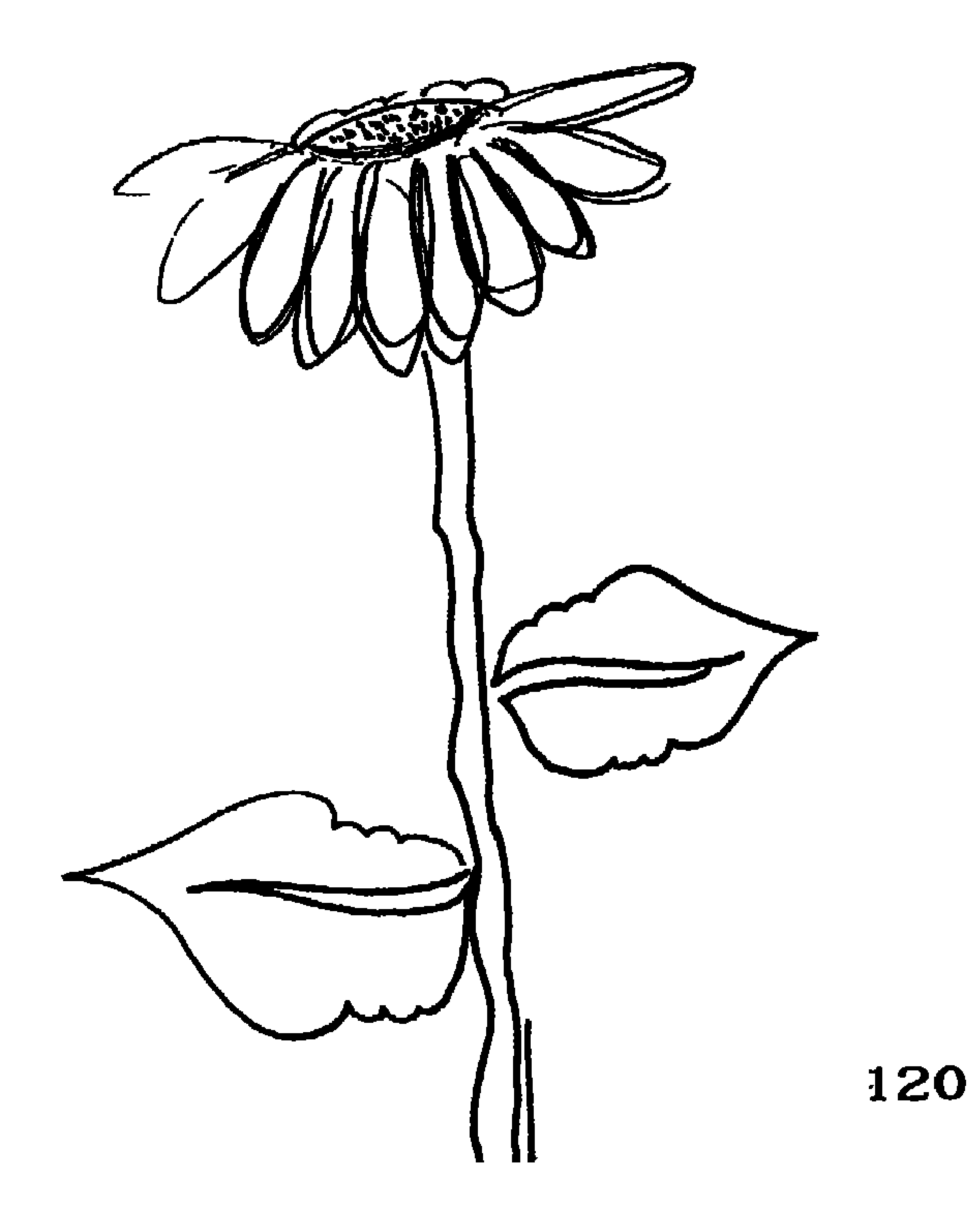
برقٌ ورعدٌ ودويٌّ على الجدران

ومعاركُ وصراخٌ قادمُ من جوف الليل

ليلٌ مسحور،

وأيادٍ مشتعلة في العتمة تخطِفُها..

وقال الساحر الكبير: انقلب السحرُ علينا.



سِفر الرؤيا

يا روح الأرواح؛

لتخبري البرية

بإيقاع قدميك الحافيتين على الرمال الساخنة

يا أسماء الناس في اسم واحد..

هل ستجعلين آثار حكايتنا مخبوءة عن العيون؟

في ليالٍ لا مرئية، ليتكِ تجعلينها حبلا سُريًا،

حبلا لا تقطعه القابلة ساعة المخاض،

يا دنيا الله التي لم يعرفها العباد بعد!

(لقد كان وكانت في الطريق، حتى جئت لا أدري من أي الليالي طارت بك العواصف إليَّ؛ لتمتطي فرسًا، طالما عبر الفيافي المملوءة بالغرباء والمساكين، وطالما بذر الطريق بالنور).

جئتِ أنتِ، يا سر الوجود؛

لتأخذيني إلى الطريق، لنمضي مع عشبة الخلود..

وفي سُكره يصرخ:

لِم أنتِ بعيدة بعيدة، يا حبلي السري؟

أنا جئت لأبقى، لا لأذهب..

ها قد كسر كلانا حتمية الحياة، ومضينا إلى عشبة الخلود..

ستكونين منذ الآن كدالية في السماء الثامنة.

والآن، دَعي، يا سيدة الكون، تفاحتي على شجرتي،

ودَعي النار والثلج في كفٍّ واحدةٍ،

إنها أنتِ المعجزة..

***

آه، يا ذات الاغتراب في دهاليز الحياة المظلمة، بعد أن سئمت غربتك الجبرية، وحظر التجوال الكوني رغم اتساعه، ويا ذات التماهي الخصب في مفردات الحياة، ما أجملك، حين جعلتِ من فؤادك بئرًا فياضةً يرِدُهَا ناس الحواري العطشى، هؤلاء الفقراء المحطمون الشاردون في الفلاة الواسعة..

آه، أيتها الرحيمة، يا ابنة الرحمة! فهنيئًا لمن قدمتِ لهم قلبك يقتاتونه؛ فينبُت من جديد مزدهرًا بحدائق غُلبا..

وهنا يصوت سماوي تألق الكروان: أنـا لحبيبي و إليَّ اشـتياقه.. يا سيد، يا عظيم الملكوت، اجعلني كخاتمٍ على قلبـه، وكختـمٍ علـى سـاعِده؛ لأن المحبة قويـة كالموت، والغيـرة قاسـية كالهاويـة؛ لهيبهـا لهيـب نار لظـى الرب.. اهرب يا حبيبي و كن كالظبي!

***

وها أنا أصرخ في البرية:

أود أن أمضي

أسألك أن تخبرني،

يا من تحبه نفسي،

أين ترعى؟

أين تربض عند الظهيرة؟

قال السـيد: جِئْتُ لأُلْقِي نَارًا عَلَـى الأَرْضِ، فَمَاذَا أُرِيدُ لَوِ اضْطَرَمَتْ

ها أنت تصرخ ثانية بصخبك الأسـطوري، كما سُليمان النبي، وتُنشِد:

أيتهـا الجميلة بين النسـاء؛ اُخرجي على آثـار الغنم، و ارعي جداءك عند بيوت الرعاة، عند بيوت الرعاة وأوتادها،

واعلمي أن الزهور قد تفتحت في الأرض، وصوت اليمامة مسموع هناك حيث صار البستان..

هل طيرانك الليلي هو من دعاني إلى السفر في غنائك؟ أم أنني من أراد أن يعلو إلى الهامة السماوية لآخذ استراحة من السيرة المفعمة بالروح؟؟ وأسألك بحق روحك الطاهرة: من أنا؟

ويواصل الكروان: إن الرواية الإلهية تدخل في طور الكمال، فأنتِ صرتِ محورها، وصرت أنا الباحث عن ماهيتي، يا سيدة الكون، أجيبيني؛ فجسمي يرتجف، ويهتز، ويطير.. يطير!

وبعين غافية، يكاد سلطان النوم أن يسري بها، كانت كلماتي ستحملني إلى ملتقى العذب والملح في الفؤاد الساكن.. أعرف أنك من سيُدلل أحلامي وينسِجُ من هُلامِها أثوابًا وقمصانًا، وسيزرع حبي نخيلًا في بستانهِ، وأنني سأرمحُ في بريتِهِ، ومهما ابتعدت الغزلان؛ تعود لموطن الكلأ، فلا متاهات ولا أوهام، ولا خرافات في دين الأحبة.. إنه اليقين في الأفئدة التي لا تستفتي المسافات. وها أنا الكروان أعود إلى مدى نافذتي وشُرفة ليلي الوردي الشفيف.. اللـه الله اللـه.. هكذا قال الكروان، وبصوته العذب رددها: تكلمي، يا سيدة الكون، تكلمي يا أمي.

المجدلية

وفجـأة حضـرت الذكـرى مكتملـة مشـتعلة، وكأنهـا الأمـس، عاودتـه دقـات القلـب الرانـي للقـاء. عاودتـه البسمات الطازجات وهي تتأبط ذراع صديقتها حين كانت تعبر الشـارع. كل زخـم الحنين هنا، وهـي هناك، وصوت موسـيقى البيانـو، وعـزف أصابعهـا، ووريـدات الجونلـة ترتعـش في الذاكـرة، وتفوح بالوجع السـاكن في قلب من يظن أنه بليد. فالوجع جعله يكتب، ولم يعد الوجد سـريًّا، ولم يعد مخفيًّا..

هكذا قال الكروان.

ويثني، وبسـنا الـروح يتألق قولـه: يا الله.. يا سـيدتي، وأعاود القول وأعاود القول... يا ذات الاغتراب في دهاليز الحيـاة المظلمـة بعـد أن سـئمت غربتك الجبريـة، وحظر التجوال الكوني رغم اتسـاعه، ويـا ذات التماهي الخصب فـي مفـردات الحيـاة، ما أجملـك حين جعلت مـن فؤادك بئـرًا فياضةً يرِدُهَـا ناس الحواري العطشـى، هؤلاء الفقراء المحطمـون الشـاردون فـي الفـلاة الواسـعة، يصرخـون: «المجدلية ها هي»..

وها هو أنت أنت، يا كروان الوجود..



ليلنا الوردي

وها هو الكروان يُشرِع أجنحته لاستقبال الأفق

ويقول:

في ليلنا الوردي أفق وسيع بمدى السماوات السبع ؛

إنها الدنيا على جناح الرخ الحنون.

قال الكروان:

الحب يهدي القلوب جمالها؛

فأطلقوا أرواحكم في مسارها تسبح وتُسبِّح..

الحب هادي القلوب

فهو الحرية بعينها..

ومن فرط الغرام

سنعرف أن الحب هو الجمال نفسه في ذاته

وهو انطلاق في المسارات الصحيحة للتحولات..

الحب..

الغرام..

العشق نُسبح باسمه

ونسبَح فيه..

وحتى عندما يُدمينا،

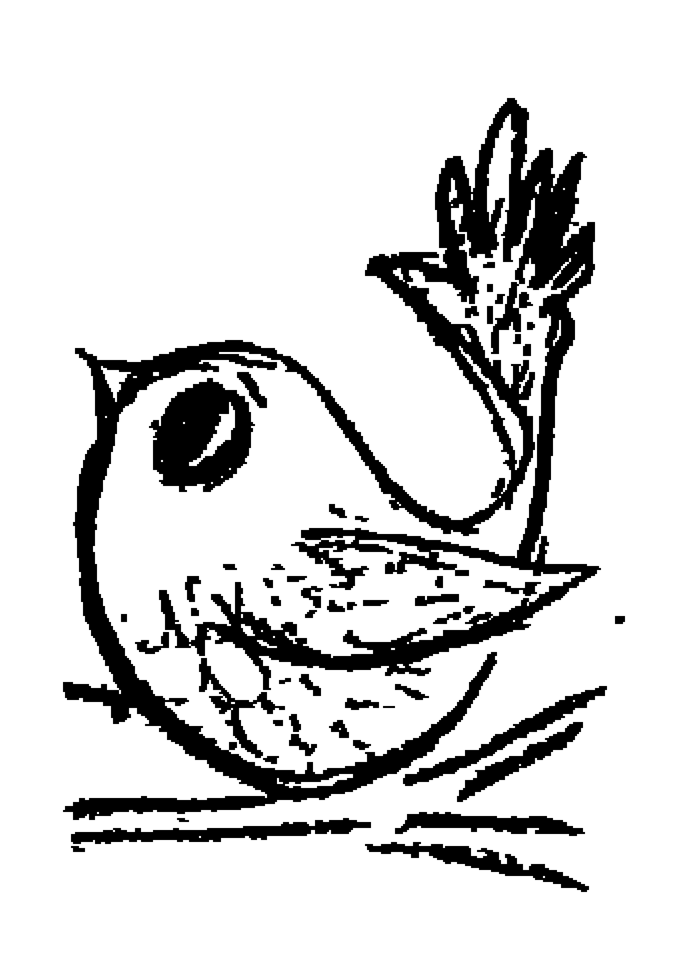
يكونِ ذلك شوقًا ولهفة،

واستلهامًا للحكايا..

إن المحب يا ليل مُفعم بمحبوبه

إن المُحِب يا ليل لا يضيق بالحبيب ولا يُضيِّق عليه..

الحب هو هو..



إنه الحب رغم رغم!!

يقول الكروان: مساءات عطرات بالحب... مساء موسوم بالحق والخير والجمال.. رغم رغم!!

مساء الحب المزروع تحت عريشة في إحدى رياض الحياة، بعث البستاني الذي يرعاها طهر نفسه في قلبي؛ فقررت أن لا أفارقها، وأن أسكن حيث عريشة قلبه عند التقاء نهره الهادئ بصخب بحر الدنيا الهائج.

قال الكروان:

لو أحببت مثلي؛

ستأخذ عيني لترى بها،

وستعرف أنه ليس بجرح،

أنه مجرد خدش، وإن كان جللا،

وأنني أحبه ويحبني، وكلانا صادق.

صُنع الحكايا لُعبتي

صنع الحكايا لُعبتي.. ألهو بها.. واللُّعبة ليست خيطانًا في النول، أو لضمة في الإبرة فقط، وليست دُمية أُساكنُها، وأصنع لها مهدًا ودولابًا لأثوابها.. إن الحكايا لُعبتي، ألهو بمعانيها في شقاوةٍ ودلالٍ مضفر بالحنين إلى طفولة وصبا.. ولا زلت أعشق الألعاب.. أُطير الأوراق بالخيطان طيارات.. وأصنع سُفنًا تحملني وألقي بزجاجة في البحر، بها الأماني تصل إلى الشطآن؛ فأصل معها..

صُنعُ الحكايا لُعبتي.. وكانت أمي تحتار في شأن البنت التي تأتيها ملطخةً كل يوم بالطين، ومعها على هيئة الطير: عصافير، وحمائم، ويمامات، وعندما تُحضر لها عصفورًا في قفصٍ؛ تبكي، ولا ترتاح إلا إذا فتحت له الباب؛ فطار!

وتتعجب أمي من البنت التي تُحضر لها دُمية تقول: بابا وماما؛ فتضعها جانبًا، ولا تلمسها لأنها ليست من صُنع يديها..

ألم أقُل لكم: صُنع الحكايا والمُتع البسيطة الجميلة لُعبتي.. أسعدُ بها!!

في البدءِ.. وإلى الأبدية

قالت صديقتي: اغمريني في مسراتك، ودعيني أحلق في الفضاءات، وأجوب المجرات، وإن هويت يا دنيا ففي أحضانك لاقيني. فقال لها الكروان، بلسان الدنيا المُحبة، وهو يروي سيرة الميلاد: سأتلقفكِ في حضن قلبي، وسأوقظ في قلبك نبض الحياة.. فها أنا على مقعد الروح أجوب الزمان.. الكون.. الأرض، والسماء، والعالم الآخر.. وسأروي...

ففي البدء كانت تلك المستديرة، والقلب: «أرض النور»، والمحيط: «نون».. وأقف أنا الكروان على التلة الصغيرة أرقب «أتوم»، حين سال من فمه «شو» إله الشمس والهواء، و«تفنوت» منبع الأشياء الرطبة، وبعد لقاء ممتع أسطوري، كان «جب» إله القرص الأرضي، و«نوت» إلهة السماوات.. «جب» و«نوت» أنجبا: «إيزيس».. و«أوزوريس».. و«سيت».. و«نفتيس».. وآباء وأمهات أُخَر للحياة.. وحول حافة الأرض غرس «أتوم» أعمدة أربعة ضخام، تحملن قبة السماء الهائلة، وألحق بها

الشـمس والقمر والنجوم، حيث منازل الأُمهات الكونيات الأُخريات.. وها هي قبة السماء تحوم فوق الأرض لتحميها لأجلك أيتها المسرة الجميلة في حضن الدنيا.

وفيمـا يظـن الكـروان، وكما اعتقـد أنه ربمـا كانت قبة السـماء تلـك هي جسـم الربة «نـوت» نفسـها، والتي رآها تحوم فوق الأرض لتحميها..

وفـي لحظة ينفذ الكروان تحـت الأرض، حيث العالم السـفلي المحفـوف بالمخاطـر.. عالم الأمـوات.. موطن «أوزوريـس»، الـذي إليـه نعـود، وتنبعـث الكائنـات إلـى الأبدية.



وقرين بعضي بعضك(*)

قالـت مـن وحيه حيـن كان الكروان في خطو المسـيح حواريًّـا: وَأَمَّـا أَنْـتَ فَمَتَى صَلَّيْـتَ فَادْخُـلْ إِلَـى مِخْدَعِكَ وَأَغْلِقْ بَابَكَ.

قـال: سـألف رأسـي بحلمِـك، وأدلـف إلـى سـرائرك وأحتمي بها من البُعد..

إن صلاتـي جامعة، يحيـن بعدها هرولـة: كيف يدخل الأبيض في الأبيض، وإن مسـني برق التوتر؛ أخشـع وأبدأ من حيث يلتحم السهم في قارورة الوهج.

قالــت: النار في أعلـى الجبل، وإلى هنـاك ذهب ليأتي منها بقبس.. فقال له: «لن تراني».. وكانت الرؤية بارتجاف الأوتاد.. هو النور والوهج.

قـال لهـا الكائـن هنـاك: سـأنفذ البعـث، ويسـهامي، سـأخيط شـق الروح، خطوة بطيئة، وخطوة واسـعة، حتى

(*) نص مشترك مع الشاعر «علي بدر».

يلتئـم الإيقاع، فتتسـاوى الشـهقات، بعـدل رائحته؛ امتزج البحران!

سآخذك بضمة ترتجف لها أوتادك، ويرتعش فيها النور والوهج!

قالـت: عنـد امتـزاج المائيـن.. المـاء العـذب، والماء الأجاج.. مرج البحرين يلتقيان برزخًا، وحِجرًا محجورًا.

قـال: سـأختصك بمـاء؛ مقـداره دهـرٌ مـن الفـرح، وسأُحيطُكِ بساعدي حين تخرج عليَّ سهامك، فإذا الرجة كأنها حجرٌ ثابت.

قالـت: وكنـا، أنا وأنت، مـن تلك الكائنـات البرزخية، كالتي تعايشـت في رأس البر، ورشـيد، وريـو دي لابلاتا، وكولومبيا.

قال: مـا بين وجعيـن، يُخلق ماء مسـتقر، لا يبرح نهرك حتى تستلذه جعبتك؛ فتخر على يديك سنوات قاحلة.. إن غلبة قلبك على حرفي، كغلبة الناس الفقراء يوم الدين!

قالت: وسنجلس متقابلين؟ على سُرُرٍ سندسية؟

قال: وقرين بعضي بعضك، ومس روحي سجدتك في الحياة!

قالـت: وبين يدي كل منا صواعٌ من تبـر مُحلى بالفضة مكفوتًـا وبصنعة متقنـة، ومن حولنا حرائر حور، وفرسـان عليهم الأبيض.

قال: حريرك، يكشف كل نزقك، حريرك يرشد الحرائر، وأنا إلى أمر ربي في غوايتك مقبل.

قالت: لا خوفًا ولا طمعًا، سنختال بأرواحنا.

قــال: وصــل بعد النشــور، فــإذا مقامنــا في بــؤرة غناء، لا تملها القلوب، وليس عليها أقفال.

قالــت: وللوصل وصــل، والوصال صلــة وموصول.. وأما إذا أنت ستصلي؛ فسأصحبك، إنها الصلاة!

قــال: ســأصحبك، إمامة، وخاشــعة، وســيدة، إن وطء حرفك في أرضي تهتز له غيمات، ونفوس طيبة.

قالــت: حملنا صليبنــا زمنًــا، وحــان الأوان لنرفعه عن ظهورنــا، واعلــم أنك ســتنزع عن قدمــي أشــواك الطريق، وســتصب عليهما الزيت؛ فيطيبا، وسأحط ردائي الكارمني اللون، وسأخيط لك ثوبًا موشى بكل صبري والحنين.

قال: ســأرفع عن ظهرك أثقــال ويصمات، وأتبعك، فلا زمن غيرك، ولا ســجال لقلبي بعدك، فقــط: اطمئني، فإني رزقت بمحبة لا يطيقها بشــر، وســأنتظرك، وســأضع رهن يديك ماءً شفافا، لم يرتشفه من قبل قلب بشر.

قالت: وســأقطف لك الصباح من البســتان، وسأُحاكي الله حبيبي حين يتبدى الجمال في كسوة الجلال.

قال: لصباحك خطوات متراقصة في موسيقى الكون، سأختزنها لي، كبخيل لن يمنح غيره بهجتك، ولو تعلمين: ما لي غيركِ، ولو ارتضيت شفيعًا؛ لقلت لك: المساء بسطوته، والحلم بسكونه، والله القادر الجميل.

قالت: وحق جماله وخيره، تنتفض سرائري غبطة، حتى أن بعضي يغبط بعضي!

قال: سأخلع ماءً سابقًا بين يديك، وأرهن قصائد لم يمسها لا إنسي ولا جني من قبل، فقط ضعيني في ركبك حارسا، وساهرا على سور حديقتك، ولا تقللي من أمري، فالله ينصر الفقراء، وأنا فقير.

قالت: أنا الجوزاء، وقلبي يجيز لمن يحوزه أن يجتاز سياجه المرصود.. أنا الجوزاء، ومن طلة على العين التي تحاكيني، أغوص؛ فأسبر الأغوار حتى ماء الصفاء.

قال: ولي الاصطفاء فتسكن روحي بعضا من زرقة السماء، وكلُّكِ تسكنيني، حتى إذا غابت نسائمك، بكتني نجومٌ؛ لأن حظي سيئ. يا رب، يا قادر، يا رافع المحبة في القلوب من غير عمد، يا ساتر البكاء في أعين المحبين المظلومين، يا رحيم بالذين على الطريق يبكون من غادرهم، ويا رحمن لمن إلى حجرك ارتكن، سهِّل لي عينًا غابت عني، وقلبًا مررت من أمامه، فلم يمهلني حرفًا ولا زادًا.

صباح الورد

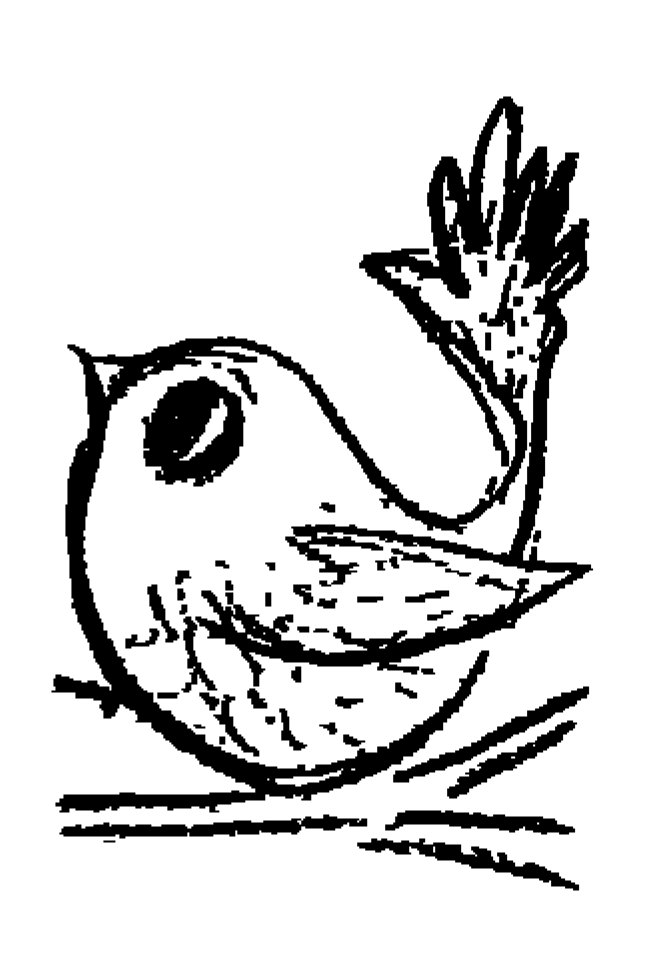
وإنحنى الكروان إجلالاً للروح الصباح
إذ تتنفس زهراً ووردا ...
وكان الدُعاء صدحاً سري
في الشرايين فتفتحت
وتغنجت أنا كصبية مُدللة
حولها العشاق ..
كُلٌ يُناجيها ويخطب ودها ..
فذاك الطائر يحُط بقبلة
على شفتاي
وذاك يرسم تفاحة
على خدي .

يا سيد البهجة

يـا من تعرف كيف يمكن للمرء أن يقضم تفاحة الحياة، رأسك يشع شيئا تسميه أنت الكاريزما، وأسميه أنا السرور والبهجـة.. ذلـك النور الذي يطـرح البسـاتين المزهرات، وجنات عدن وشـقائقها الممتلئات برائحة، بأريج، بعطر؟ لا بل بأنفاس زهر بهيج منعش – أي يشـبهك– وتسقيه من عين تنبع من قلب الجنة..

فيا من أنت أنت، لك الحب وضياؤه حتى ترضى.

تلـك هدية ميـلادك، أهديها لمن ولدتـك، حتى تعرف أنهـا أنجبت مخلوقًا أمكنه في شـهور قليلـة أن يمنح امرأة بعضًا من البهجة، وكانت تخاف أن تتلاشى.



نصف إله

وقال الكروان في حكايا الغرام: إنها كانت لنصف إله ونصف بشر.. كانت لمن ما لهيئة جسمه من نظيرٍ، وكانت على صوته الخشن المثير تصحو ليلها، وكان لا يتركها إلا نائمة لتحلُم بغدِها معه..

إنه كان كجلجامش، يمضي في مظالمِهِ ليل نهار، وكان راعيها القوي الوسيم الحكيم، وكانوا يغارون من سلطان عشقه عليها، وكانوا يبكون، وكان إن سمعت الآلهة شكواهم؛ إذ قالوا بحسرة وتحريض: لقد خلقتم نصف إله مغرور، وأوقعتموها في حبائله.

إنه الصاحي بليلها، والساهرة بعشقه، وهي العابدة لخشونة صوته؛ فبأس سلاحه بلا شبيه، وهو كجلجامش ماضٍ في مظالمه ليل نهار..

وهو راعيها، وهو ظالمها..

وهو قوي، وسيم، حكيم..

هكـذا قالوا لأعظم آلهتهم: «أنتِ يـا من خلقتِهِ، اخلقي له الآن ندًّا يعادلُهُ صخبًا في الفؤاد».

وتمتمـت الإلهـة فـي فؤادهـا باسـمِهِ، فاسـتحضرت صورته، وغمسـت يديها في ماء الحيـاة، والتقفت بقبضتها مـن الحمإ المسـنون حفنة شـكَّلتها على غـرار هيئته، وفي البرية تركته صلصالًا كالفخار..

وفـي يومهـا التالي راقبته وهـو يرعى الغـزلان، ويفرح قلبه عند الماء، وهو كالبدر وجهه..

فهل سيخدعها البدر؟!

وهل لعابدة أن تُبدِل الإله المعبود؟!

إنـه الصاحي بليلها، والسـاهرة بعشـقه، وهـي العابدة لخشونة صوته؛ فبأس سلاحه بلا شبيه..

وهو كجلجامش ماضٍ في مظالمه ليل نهار..

وهو راعيها، وهو ظالمها..

وهو القوي، الوسيم، الحكيم..

لك وحدك

والحكي عنهـا، تلك التي قالت: لك وحدك ضحكاتي من قلب القلب..

لك وحدك رقصتي المرتحلة بين ضلوعك..

لك وحدك همس أصابعي من بين خصلات شعرك..

لـك وحدك أحلامي المنطلقات نحو بسـاتين الدهشـة وجنات الرضا

.. لك وحدك أنهار الرونق، أغتسـل فيها كل صباح من ذنب كل طرفة عين لم تمر فيها بكياني..

لك وحدك حضن شـجرة البهجة التي تسكنها عصافير وكروانـات وهداهد وبلابل، لا تعرف من أشـعاري إلاك، أيهـا الواحـد بيـن عشـرات المقتحميـن بدعـاوى الـود، والمنمقين للكلمات، ومن يرسمون الشعارات في الحب، وآيات العشق الكاذبات..

لك وحدك وجداني المتدثر بحنانك..

لك وحدك بسماتي حين تداعب عينيك..

لك وحدك..

ميدان القلوب المُضيئة

وقال الكروان: سأرويكم من الأثر حكايا تأخذ الروح إلى حيث زخم النور الذي ينبلج من سماء العتمة القاحلة في قلوب مزيفة..

ففي نهار كانت الشمس قد استقرت في كبد السماء، خرج رجل جميل الهيئة مهندمها إلى الخلائق حاملًا قلبه بين كفيه، وقد وضعه خلف مكعب بلوري، فبدا مشعا برونق آخذ، وفي الميدان الكبير في البلدة، في يوم السوق، حيث البشر جيئة وذهابًا؛ اعتلى الرجل تلك القطعة الرخامية المجاورة للتمثال الذي يتوسط المكان، وبصوت شجي رخيم أخذ يغني قصيدته:

ـ من له أن يمتلك قلبًا كقلبي..

قلبًا كالذهب أو أشد بريقًا..

قلبًا لم يمسسه شيء، ولم يخدشه ظفر.

والتفّ الجمع من حوله يكررون مقاطع من قصيدته؛ فبدوا ككورال. وجاء موسيقي شاب يعزف على الأوكورديون بموسيقى بحر متوسطية فاتنة..

كنت منتبهة لكروانـي وهو يحكي، ولمحت دمعة تفر، وقد واصل قائلًا:

وفي وسـط كل ذاك الصخب أتى شيخ فانٍ، يتوكأ على عصاه الخشبية العتيقة، وفي علبة زجاجية، كالتي تستخدمها النسـاء في تخزين التوابل، بدا قلبه واهنًـا ممتلئًا بالنتوءات والبـروزات. إن قلبه بدا فظيعًا في قبحه، وقد تقدم الشـيخ إلى الصف الأمامي من الساحة رافعًا قلبه لأعلى، وبصوت جهـوري ينافي وهنـه البادي، قـال موجهًا كلماتـه للرجل الجميل الطلعة، البهي طلعة القلب في عيون الجمع:

ـ ترون هذا القلب مشـوهًا، وتـرون ذاك القلب جميلا. لكـم الظاهر ولي الباطـن، ولكنني عبدٌ مأمـورٌ لأصحبكم إلـى الحق، وفـراقٌ بيني وبينكـم بعده. أيا قـوم، وإن رأيتم قلبي ممزقًا بشعًا، فذاك من طول التداول بين صعاب الحياة وعتاة البشـر وصلحائهم، فما من مرة مررت بتجربة، حتى قطفت من قلبي ومنحـت صديقًا أو حبيبًا، وربما عدوًّا، ما يصلح حاله من شـغاف قلبي؛ فيتبدى مكان الجُرح شائهًا. ومـا من مرة مررت بصديـق أو حبيب قضى أمرًا بيننا وأراد مكافأتي؛ فمنحني قطعة من قلبه يسُدُّ بها مكانًا شاغرًا، ربما زاد ملؤه أو انتُقِص..

ورأيت الدمع ينساب من عيني كرواني، ونحيبًا سمعته يتردد، والشيخ يقول للرجل الجميل: فهل رأيت قلبك المنمق أجمل من قلبي الممزق؟

ويحكي الكروان قائلًا:

تقدم الرجل واحتضن الشيخ، ثم توجه إلى بلورته الحمقاء يفتح بابها، وينتزع من قلبه شقفة تسد جرحًا غائرًا بقلب العجوز، الذي كان قد امتلأت كفه بقطعة وردية من قلبه يضعها في الجزء الخاوي..

بكى الرجلان، وسمعت بأذني النحيب، وفي أعقابه أغنية شجية يرددها الرجل الجميل، بعد أن صار بقلب أجمل: من قال إن القلوب اللامعة جميلة؟

إن القلوب مخازن للصور، نرى في غاباتها مراعي للغزلان، وقبابًا، ومآذن للصلاة، وأجراس كنائس..

إن القلوب تصدر عنها الأماني، وأيضا تكون ثكلى بالأحزان، وذاك سر رونقها!

نغمات الغرام على مازورة موسيقى الكروان.. وهكذا كتبتنا الحكاية(*)

وفي ذات ليلة حط الكروان على سـور شرفتي، وكانت لنـا حكايـة جديـدة، وامتد الخيـط بيننـا؛ فقلت: لـكل منا مـازورة، ولكل منـا نغمات، ولكل منا مفتـاح صول، ومن خـلال المفتاح تتحدد علاماتنا الإنسـانية؛ فأنت موسـيقى شـرقية زريابية، وأنا موسـيقى فرعونية تشـبه ترتيلة قبطية. أنـت أغنية تبـرق بحُلي الصَّبـا والنهاوند، وأنـا أميل أحيانًا بمزاجـي إلى موسـيقى الجاز الحنينية، وتعتبِـر أنت الراب فتحًا إنسـانيًا إلـى عالمٍ يُقـدِّس الكلمة الحُـرة. فيروزية أنا وأنـت مُغـرم بـــ....، ولكـن تظـل مازورتنـا، ويظل سُـلَّمُ موسـيقانا الداخليـة وأنغامنـا المتصلـة المنفصلـة.. رغـم رغـم!! خالقة للحن لـم نسـمعه من قبل، ولـم يتبدَّ للوجود بعد، وأظننا سنؤلفه معا؛ لأننا معًا نبحث عن معنى الوجود، وإن ظننت أنا أو كنت على يقين بأنك أنت تسبقني بفرسخ، ولِسبقِك معنى للمعنى.

(*) نص مشترك مع شاعر فلسطيني يُدعى باسمه المستعار «ألب أرسلان».

قال الكروان متهللًا: أصدقائي النجوم، لا تقفوا كالبلهاء على النافذة، تعالوا وارقصوا، فكل رقص؛ هنا موسيقاه، كل جسد تائه؛ هنا روحه، كل حُب؛ حُبهُ هنا، الوجود ومعناه، وهنا الحياة بكل زينتها وأسرارها..

وأنا كما موسقني قلمك: زريابي، شرقي، نهوندي، رابي، وأدين أيضا بدينك الموسيقي طوعًا وحبًّا، فأنا فيروزي، حتى يرث الناي الأرض، وجازي إلى أن تعود أسلاف المهاجرين إلى موطنها الأم، وفرعوني مُرتلٌ بالنيل!

قالت: حط الكروان، وشاركني حديثًا للصباح. ففي تلك الليلة كان حديثًا على سُلم الموسيقى المحببة التي قادتنا إلى بيت الحياة، وقد كان مفتاحه بيد الصباح.

فقال: وراقصك حديثًا للصباح، حديثًا أنسى الديك وظيفة الصياح. وحين اشتدت النشوة بالعازفين؛ استيقظ قلبي، كنعاني يمارس «دبكته» في حقل قمح إفريقي، يهزج للنار؛ غجرية تستحضر أرواح جذورها بطرقات كعبها، صوفيا يرشف من الغيم!

قالت: ودبكنا دبكة، وكانت رقصة بموسيقانا هادرة. فما أروع العزف والعازفين، والراقصين حضور!

فقال: والتانغو يخلق من كل حُزنٍ زوجين، ومن كل شهوة قبائل!

***

الجزء الثالث





رؤية

وفي تفسير الرؤى قرأتُ أن البستان امرأة؛ لأنها تُسقى بالمـاء؛ فتحمـل وتلـد، وأن البسـتان فـي عيـن الناظريـن هـو الجنـة، شـجر موائدهـا، وثمـار طعامها، لبن و عسـل أنهارها..



أنا وأنت...

اقترب الكروان من نافذتي، نقر على الزجاج الذي احتميت خلفه من برد الأيام القارس، وأنا وحدي ها هنا. لقد عادني محملًا بالحكايا، وها هو يروي من جديد في الغرام حكاية..

وقال الكروان عنها وعنه:

كالمخمل روحك نعومة وقوة.

كالصبار أنا.. على رأسي تاج الزُّهيرات، مرار.

كالصفصافة أنتِ. أحتضن ظلكِ، وأود أن لا أبرحكِ.

كالطريق أنا.. لا بد وأن تقطعه لتعرف منتهاه.

كالمخطوطة العتيقة أنتِ.. عليَّ أن أدققكِ.

كالنهر أنا.. عليكِ أن تعرفي العوم لتصلي إلى البر.

يا ليت حِبي يصفو لحُبي

يا ليت حِبي يصفو لحُبي في المُنتهى كالمُبتدى..

وحِبي يرى المُبتدى والمُنتهى صدقا ونورا..

فالـروح روح والقلـب قلـب والحياة حيـاة.. إن حِبي هـو ذات روح الصفـو، والفرار مؤثم يـا روح، والمكتوب تلاقٍ، ولنضـع الآن الباقي من نجوم وكواكب وملائكة في جُعبة الروح زادًا وزُوادة للآتي، وحينها ستكون النخلات وتمراتهـا أرواحًـا مجنـداتٍ جنبًا إلى جنبٍ مـع الملائكة، أيتهـا الهُدهُـدةُ القادمة. وحظـي الجميل أنـه ذاتُ الذات، والـذات ذات الـروح صفو في ذاتها، يا راسـمة الخارطة.. وهكـذا كانـت لنا فـي الغرامِ حكايـا يقُصُّها الكـروانُ على الهدهد الصديق، في الصُّبحِ وفي المِسا..

ولقـد قُلـت لأثيرِهِ المتسـلل كسـحابات قطنيـة مُريحة محشـوة بمـاء المطر: بروحـك التي أشـبعتني امتـلاءً حد الزخـم، صـار فـي غيابـك حضـورٌ يلمسـني و«يُطبطـب» علـى حنايـا الوجـدان، ومـن أناملـك تنبعـث إلكترونات وإشـعاعات البهجـة عن بُعد، وحين يهِـلُّ صوتك الأجش

عبـر الأسـلاك؛ تزدهـر أوردتـي وتنفلـتُ غرامًـا، وتتدفق رهافـات نورانيـات مـن مسـامي؛ فأبـدو كشُـجيرة ورد عشـقية، يـكاد عطرهـا يُسـبغ الكـون كلـه بتلـك الرائحـة القادمـة مـن نـدى أنفاسـك علـى أوراقـي الحميمـات. تسـاءل مندهشًا: مال كفيك تائهتين هائمتين إلى اللا مباح. أتخيـل ظواهـر للهجـرِ، ريحًا تُكابد ريشـك، يـا أيها الطير الهمجي النداء..

***

فقـال الكروان: كظبـاء قديمة فـي البرية، نتسـابق نحو النبع، حيث الماء ونخلة، وغرام سـامق تسـلقناه إلى تخوم السـماء، وعبرنـا فكنـا قاب قوسـين أو أبعد قليـلًا، فلا تيه ولا هجـران؛ فالطير يحط، والظباء حيـث الكلأ، ونداءات تترامـى فـي الأفق، ومـن البعيد تعـود إلى تخـوم الأرض؛ ليقـف الكروان بنافذتي، وأسـتيقظ مـن الحُلمِ علـى حُلمٍ أجد فيه وجهه هو هو، صفوًا وحبًّا وعناقًا في صلاة تشـف معها الروح؛ فنُجاوز المباح.

الواقفة بقبضتها

رحابةٌ يراها ضيِّق النظر ضيقًا على اتساعِها

صارحتـه بأن الكاتـب الكبير اعترف لهـا ذات يوم أنها امرأة يخـاف منها الرجال، وصارحها الرسـام العظيم بأنها مـن النـوع الـذي أحبـه، ولكنها فـرَّت لأنـه لم يعـرف لها «ملكة»..، وحين سـألته: «وليه تمتلكني؟»؛ قال لها: «أريد أن أفهمـك»، ولـم يفهمهـا، ثـم أردفـت: «هي سـت مش سهلة!».

قـال: «وماينفعـش تكـون سـهلة، ولـو كانت سـهلة ما كانتش تبقى كده».

قالـت ضاحكـة بسـخرية: «هـي كـده دي اللـي مجننة العالـم.. مجنناهـم.. بس هي هـي مبتعرفـش تبقى واحدة تانيـة.. حتـى الزوج القديـم وأبو الأولاد اللـي أخدها قطة مغمضة، لما بقت هي هي كده برضه، اترعب منها».

قـال: أو لعلها لا تقبل أن تكون غيرها.. هي.. لا تكون غير ذاتها.

قالت: الواقفة بقبضتها.

قال: إن كانت هي؛ فلا عداها، ولا وسعها سواها.

قالت: هي رحابة يراها ضيق النظر ضيقًا على اتساعها..

قال: الله!

قالت: هي براح، وطرح لا يقطفه من بستانها السري إلا من يزرع حوضًا فيه.

قال: إلا من يزرع حوض الصبار؛ فالثمرة التي هي طرح الشجرة، هي ذاتها أم الشجرة في الحياة.

هكذا تجود الروح من ذاتها؛ ككُل مضيء!



زهـور حديـقـة الجوزاءِ

فـي ذات حلـم، رأيـت الشـمس أيقونـة الصبـاح قـد حضرت، وببخورها اغتسـلت، وعبقت سـكتي بشعاعها، ورأيت في منامي روحي وقد أزهرت ياسمينًا، وهنا تسللت صورتـك مع زهــور حديـقـتــي والـعـطــر فــيــهــا وعــصــافير أغـــصــاني، ورأيت حين جنى الليل قمرك في محبة يتهادى على تقاسـيم كمان يدغدغ أذني وينساب وينزلـق سـيلًا؛ فتنفرج لـه أبوابِ القلـب شـوقًا، وها أنت تسـألني عـن حالي؟ وهـا أنا أخشـى إن أجبتـك أن تصبح مثلـي وتتمنـى لو أن العصفـور يحمل ذاكرتـك وأحلامك ويمضي. ولكنني سـأتمنى أن تضيفني إلى جدول أعمالك المنشغل المزدحم دائمًا.

***

حلمـت بـك فـي صبـاحٍ جميـل ملـيء بالقصائـد والياسمين..

وعلى خد نهرِ الغرام نقشت اسمك أنت، وابتسامتك أنت..

وإنني لأعلم أنك تهفو لطيفٍ، ولأنك كنت تحب بشرتها، وتعشق جيدها ومنبت شعرها؛ سأروي لك أنها كانت لأجلك تقضي الأيام تجلو بشرتها وتصفف شعرها، والصورة ها هي في الإطار تنعكس في مرآتي، وتترجاني أن أقول لك:

« العشق لا تخشاه.. فمن يعشق لا يخاف؛ فقلها..

سيصير ثغرك معها سكرا، ورضابها عسلا..

وتقول لك: ضع يدك على جيدي أنا، وحينها سيصير جيدها مرمرًا».

فلقد حلمت بك في صباحٍ جميل مليء بالقصائد والياسمين، ينتثر على خد نهرِ الغرام،

ونقشت اسمك أنت، وابتسامتك أنت.

وإنها لترى قمرك في ليلة محبة، يتهادى على تقاسيم كمان، يدغدغ الصمت، وينساب وينزلق سيلًا؛ فتنفرج له أبواب القلب، وتتحقق أحلام برج الجوزاء(*).

(*) الجوزاء: روايتي القادمة.

في ذاكرتي معمل تحميض نيجاتيف

نيجاتيف الأمس

ملامحك القوية،

طيف خشونتك الحبيب.

سأستعيدك..

سأصنعك على عيني،

وستتجسد أمامي،

صامتًا،

واجمًا،

عليك حُلة الخيلاء.

إنه أنت وبكل الفخر.

وسأشهد نفسي بجوارك،

أنا النديمة تتبعك إلى الحانة المقدسة.

أخطو..

تقدم،

تبوأ عرشك،

وسآتيك راقصة مقدسة،

وسأبدل أدواري بإتقان يشبه صنعتي لك،

وسأعزف الهارب في لحن أسطوري،

ما لا أذن سمعت!

ولن أبرح مكاني دون أن أتلقى منك أمرًا.

صبرًا!

صبرًا!

ستأتي الإشارة،

صمتًا،

كلامًا،

نبوءةً،

طوع أمرك.

استبد..

كل شيء لك مباح..

أنت..

أنت..

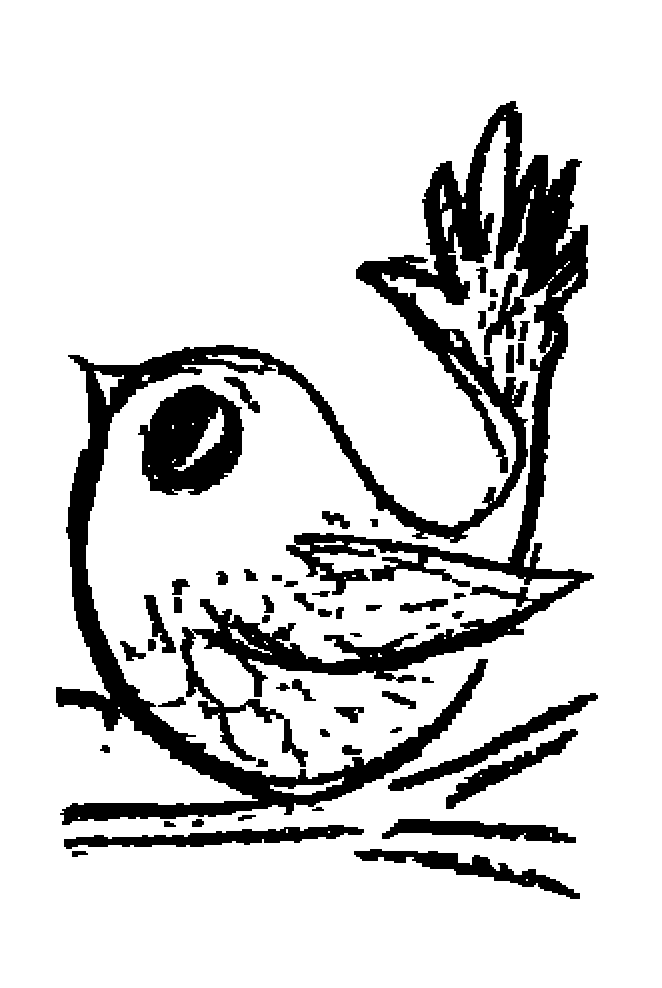
أنت وحدك!



وَ بَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

أَيُّهَا السَّاقِي إليك المُشْتَكَى
قَدْ دَعَوْنَاكَ وَإِنْ لَمْ تَسْمَعِ
مَا لِعَيْنِي عَشِيَتْ بِالنَّظَرِ
أَنْكَرَتْ بَعْدَكَ ضَوْءَ القَمَرِ
وَ إِذَا مَا شِئْتَ فَاسْمَعْ خَبَرِي
عَشِيَتْ عَيْنَايَ مِنْ طُولِ البُكَا..
وَ بَكَى بَعْضِي عَلَى بَعْضِي مَعِي

ابن زهر الأندلسي




Dina Tawfick
2013

«علي» العاشق(*)

أجيبي يا «عِشقُ» «عليَ» الشاعر.

كيف يا أنثى الغول تفعلين هكذا بعاشِقكِ؟

«علي» العاشق يتنفسك هواءً يتغلغل رئتيه

أنت الأوكسجين وتمتنعين !!

أيتها المعشوقة الغولة، تفترسين ضحيتك بدم بارد، يا وحشية الطبع والمسلك!

تعرفين؟

سيغضب «علي» عليَّ لأنني أوبخك!

لأنه، وإن كان يحتضر بفراقك المقصود بنهم أنثى، تريد كل شيء ولا تمنح شيئًا..

أيتها الأنثى الغولة.

(*) علي العاشق هو الشاعر «علي بدر».

«علي» سيغضب منيّ لأنه يأبى أن يصوب نحوكِ ولو أُنمُل يتهمك!

سيغضب «علي» العاشق، وربما ينهرني ويوبخني!

كيف لك، يا دينة، أن تؤنبيها وتوبخيها، بكلمات تخدش مرمرها!

المجنون «علي» يحبك يا فتاة!

وأنت تستمتعين بعذابه!

وأنت تتدللين ويُلهبكِ الغضب، لو انصرفت عيناه عنكِ!

وطالما بقيت مقلته عالقة بمُحياكِ تتعبدك؛ فأنت مرتاحة!

«علي» ساذج كرفاقه العشاق!

ألم أقل لك: مجنونٌ مخبولٌ بالعينين،

وبنزق الشفتين!

مجنون،

سيسافر في المرمر، وسيغرق في بحر حريرك!

مسكين لن ينجو، وستذيبينه ببكاء حمضي كاذب!

مسكين «علي» العاشق، لا يعرف آخرته.

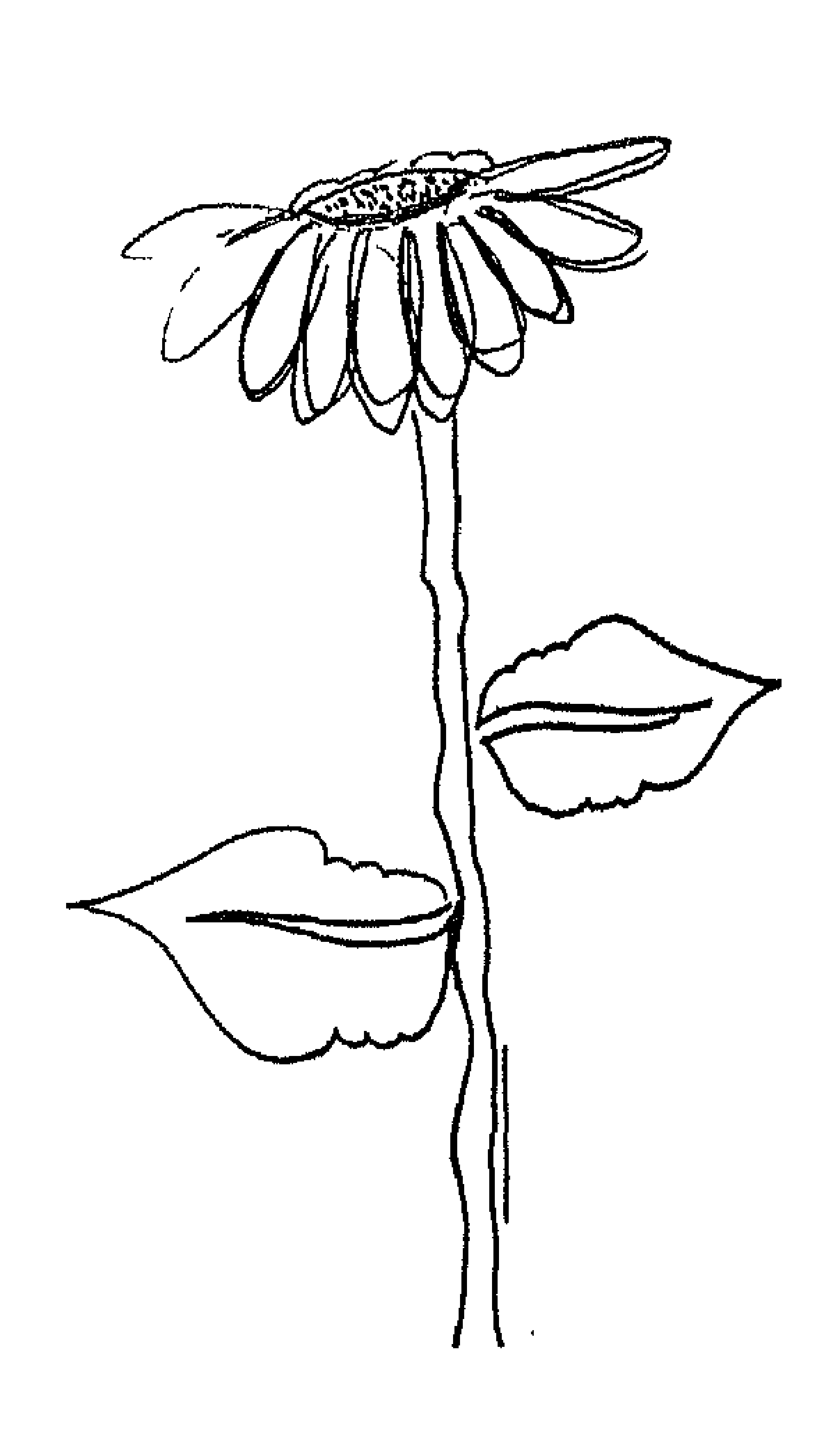
إنك يا فتاة،

يا من تتسلين بقلب «علي»،

وهـو الأبلـه سـيوبخني فـورًا، ولن يسـمح لـي أن تقرأ شيماؤه كلماتي،

وسيُقرِعُني مرارًا،

ويقـول لي: «خلاص يا دينة، قُلتي كل اللي في نفسـك وزعلتيها مني»؟!!



في شُرفة ليلي الوردي

الرواية الإلهية تدخل في طور الكمال؛ فأنت صرت محورها، وصرت أنا الباحث عن ماهيتي. أجيبيني، فجسمي يرتجف، ويهتز، ويطير.. يطير.

ستحملني إلى ملتقى العذب والمالح في الفؤاد الساكن.. أعرف أنك من سيُدلل أحلامي، وينسِجُ من هُلامِها أثوابًا وقمصانًا، وسيزرع حبي نخيلًا في بستانهِ، وأنني سأرمحُ في بريتِهِ، ومهما ابتعدت الغزلان تعود لموطن الكلأ، فلا متاهات ولا أوهام ولا خرافات في دين الأحبة..

إنه اليقين في الأفئدة التي لا تستفتي المسافات..

وها أنا الكروان أعود إلى مدى نافذتي، وشُرفة ليلي الوردي الشفيف.

عذرًا.. فهكذا أستعيد القسم بين صفحاتي..

حكايات غرائبية
عن تدليت بعض النوستالجيات البالية(*)

جلست إلى نفسي هذا المساء، واستدعيت حكايا الفراق القديمة..

شاهدتها على الجهاز المثبت أعلى الجمجمة في فص النوستالجيا..

كنت كمن ترتق أسمالها البالية، وفي لحظة ـ ومن فرط غرائبية الأحداث ـ واتتني شجاعة استدعاء قوة أخرى في فص النسيان عند مؤخرة الجمجمة، ونفضت عن روحي أتربة ما متراكمة أعلاها..

ورغم تعطل زر المسح أو - التدليت - فقد قام بعمله على الوجه الأكمل للحظات، وعاد إلى عطله السابق حتى إشعار آخر..

إنها حكايات غرائبية عن تدليت بعض النوستالجيات البالية!

(*) النوستالجيا (Nostalgia): الحنين.

صباحك جنة

يـا كروانـي الحبيب، هواك وعشـقك من الجنـة، كنهر خمر دافق يتسلل فيروي ظمأ السنين، صبوحًا منيرًا..

يـا كروانـي الأحـب، دعني أحـكِ؛ فللحكي شـجون وللقلب أماني..

هبني أن أكون حوريته الأبدية؛ فاشهد أنني أرى من بعيد تلك القبـاب اللؤلؤية، وتنسـاب بين يدي حفنـة من تراب المسك، وأنني لأتذوق الآن رحيقه المختوم، الذي يشرب منه المقربون، وإنني الآن بين الأنهار والعيون نرتشـف معًا من السلسبيل، ومن عين مزاجها الزنجبيلَ..

يا كرواني، إنني أحلم!

من دُرجي السري

عند الفـراق أُلملم من عيوني بقايـا صورتك؛ صورتك الحنون.

أسأل مرآتي عنك؛ فتخبرني عنك وعنّي،

ترسمك طيفًا، وترسمني يمامة، والطيف يهدهدها.

نامي يا يمامتي الحزينة، وسأزورك هناك،

في مكان غير المكان

***

فراقك أجمل؛

لأنه لقاء!

شكرًا لجُرحٍ كانت فيه صحوتي
إنها مواسم الفراق والبهجة

يا كروان الليل، إنني أستمع الآن إلى أغنية، وقد تذكرت أن الغد يحمل ذكرى اللقاء الأول. ويالـ.. سخرية القدر - ابتسامه - الذي تحول إلى ذكرى الفراق.

يبدو أنها ستكون أمسـية رائعة من الحكي؛ ففي دفتري بـدأت أكتـب من جديد. إنـني أكتب تاريخـي، وإليك أول ثلاثة أسطر: هل أنا في الجنة؟

سـألت نفسي، وشـعرت بخفة غير اعتيادية، وهو مقبل نحوي بجبينه الواسـع الأسـمر، ونظرتـه الثاقبة والتي رغم قوتها «حنونة»، التقف كفي بين يديه..

رعشة بهجة سرت في روحي، نعم لم تنفر روحي، لقد احتواني.

أنا حتحور

أنا الأم حتحور..

أنا الحب والجمال،

أنا إلهة السماء والأرض،

أنا البارة،

أنا بيت الحب..

أنا من أحرس الأشجار وأغصانها..

أنا من أرسل الفيء للمتعبين..

أنا من أسقي الظمآنين..

أنا المعبودة؛ فاشهدوني..

في سفينتي المقدسة، تارة،

اشهدوني..

في قدس الأقداس، تارة،

ولكنني دائمًا حتحور الخالدة؛

فاستريحوا ها هنا بجواري.

وصارت حروف اسمك لُعبتي الحميمة كلمات الغرام المتقاطعة

قالت: وصارت حروف اسمك لُعبتي الحميمة، ما بين الدال ونظرتها، والميم بالتفافتها تحتوي روحي، وتضم الحاء قدي ضمًّا، وللعبتي أهمس اسمها خلسة بحروف دالة، وبدال كلها شوق؛ أنادي يا...

ما أحلى حروف الغرام التي تنطق باسمك واسمي؛ عاشق ومعشوق!

ثم قالت:

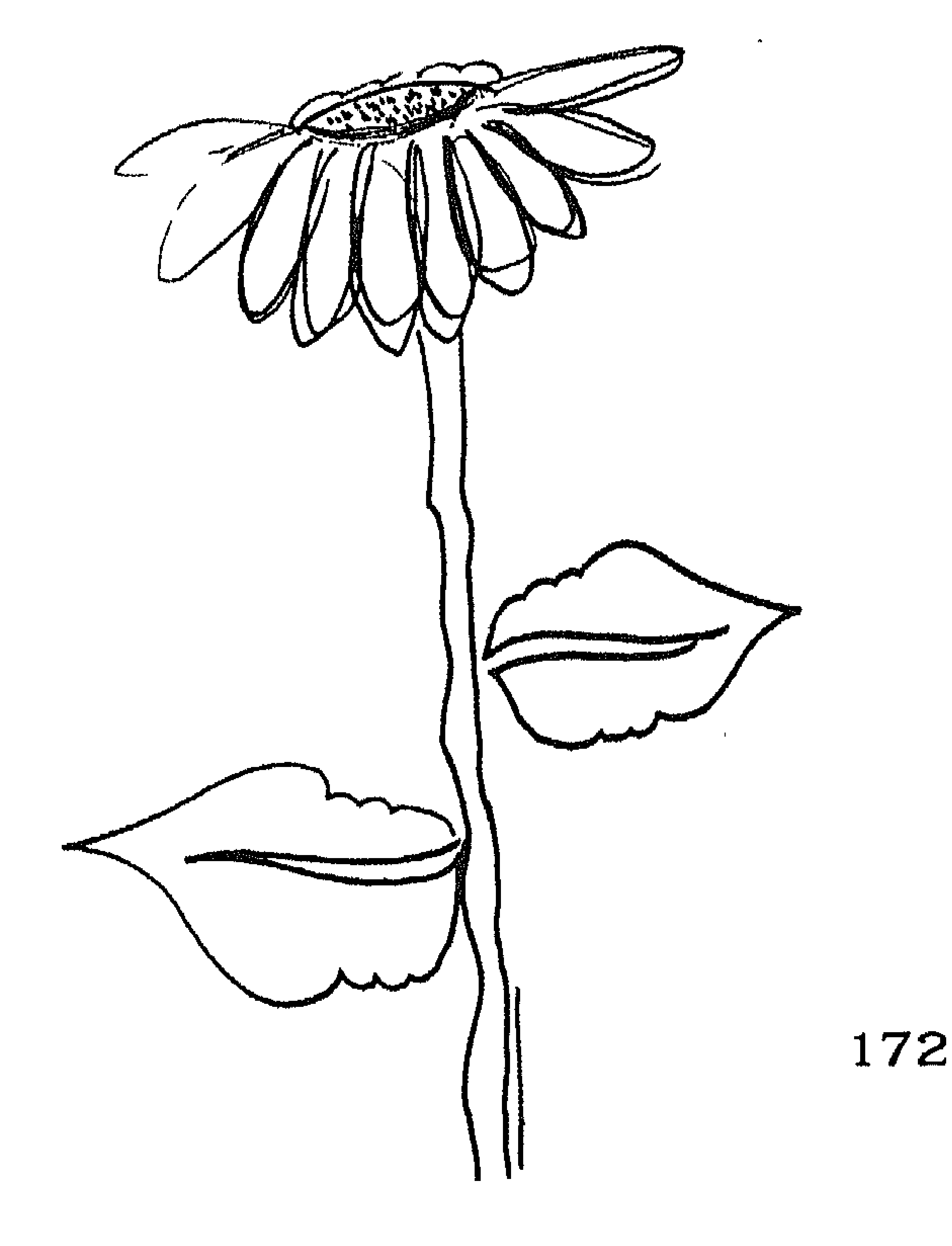
لن أخاف في حبك؛ فالله يعلم، أنت يا من صنعتك على عيني، أهفو إليك يا عشقي، ولن أخاف بعد اليوم لومًا؛ فأنت صنعتي، والرب أعلم.

عِشقي،

تمدد على فُرُش السندس والإستبرق وناداني، والنداء خفيٌّ، وامتلأت بجرسه شجيٌّ..

وجلست بين يديه وضمني بقلبه، ألم أقل لك قبلًا إنني حورية عينه، وما خذلنا الفراق أبدا،

والملتقى: سماء ثامنة، نتكئ فيها متقاربين.



يا له من صباح يا أخي!

صباحك ورد، ورشَّة عطر على وجه الحياة.

أؤمن بالطالع السعد ونبوءات النجم..

صباحك شهي بهي.

بعد أن قرأ العالم رسائلك؛ ففاض عليك بنوره الكوني؛ فيكفي أن الحب يملأ قلبك، ومن يملأ الحب قلبه يجعله هو نفسه طالع سعد للآخرين.

فانطلق على خيلك المعقود الخير بناصيتها..

انطلق في الكون بأسره، ولتكُن أنت نفسك أيقونة سعد، يا أخي، ولتحمل ألوانك الحبيبات، وطاقتك؛ لتُشرق بها على الآخر، مهما اختلفت معه، أو اتفقت، وليحمد هذا الآخر السماء أنك مررت به يومًا، وسرت في دربه، وما عليه إلا أن يتبع خطوك إلى الحياة...

يا له من صباح!!

هي المحبة.. عين القلب

قـال الكروان ذات مسـاء، إنه سـمع السـاحر يُـردد في السَّـحر: إن لـي في القلب منزلة، لـو علمتها جبال المحبة؛ لخشعت، ولو أدركتها روحي؛ لفرت إلى قلبي منتشية.

قـال لـي الكـروان: إن تلك هـي المحبة، عيـن القلب، فـي شـدتها، وفي رخائهـا، لا تنظر إلى أحد غيـري.. وقال إن السـاحر وعـده أنه سـوف يعلمني فنونـه، وكيف أخلب بحركاتي العيون، وألعابًا جديدة.

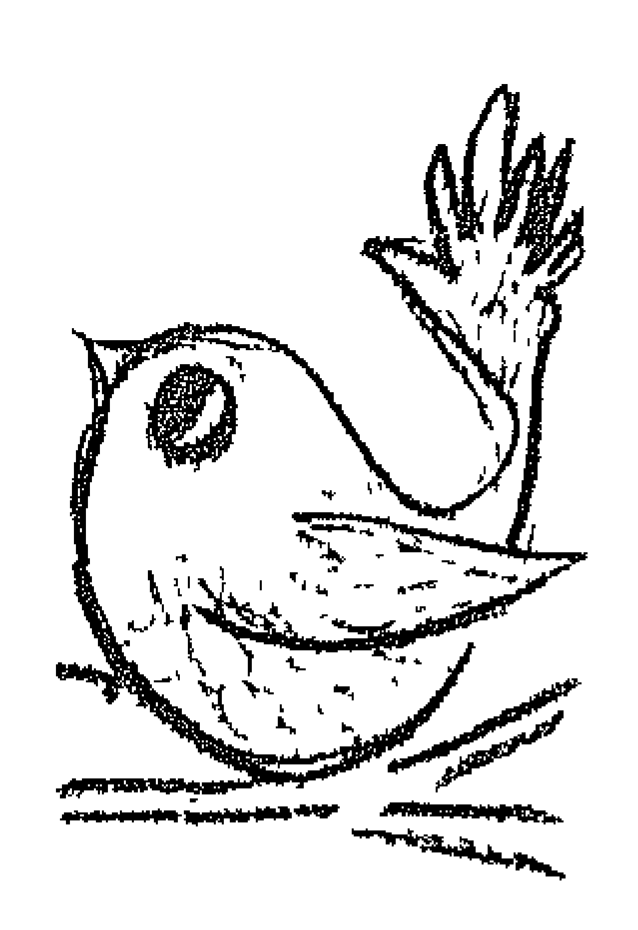
وهنـا سـمعت صـوت السـاحر فـي الأفـق يقـول لي: لا تخافـي أن تمـدي يـدك. فقـط ارتاحـي قليـلا، وهدئـي أنفاسـك، ويممي وجهـك نحو قلـوب الناظرين، وحدقي في أرواحهم؛ يصيرون رهن أصابع يديك.



الطفلة دينا

عندمـا كنت طفلة صغيرة؛ عشـت فانتازيـا خيال والت ديزنـي، وكان ذلـك متاحًـا من خـلال البروجكتـور أو آلة العـرض الخاصـة التـي جلبهـا أبي فـي أواخر السـتينيات لتسليتي، فلم يكن الفيديو قد ظهر بعد.. وكان أبي – رحمه اللـه – جميلًا كما الأطفال، محبًّا للكارتون، وكنت أجلس فـي حضنه أتابع مدن الخيـال والقصور والقباب التي بنيتُ منهـا صروحًا بقلبـي، وربما هندسـتها بشـاعرية في عقلي ووجدانـي بكل عمـق، وربما كانـت دينا الطفلـة الداخلية هـي التي ابتدعت: كرواني، ورُخي الجميل، وأرض النور، وشجرة الحياة؛ لتكمل به طعم الحياة المفتقد..

أتمنى أن أظل تلك الطفلة!



الغجرية السمراء، الضخمة الجثة

أتذكر الآن الحضور الطاغي لتلك المرأة الهائلة السمراء ذات العينين الكحيلتين، وروحها وصوتها، وذلك الأداء المثير للانفلات بعفوية: «شقيش قول لي مروح قبال صباحنا يبوح، والله ما بقدر أسيبك. تشيل قلبي تروح».

إنها تلك الغجرية السمراء، ذات المنديل الأوية، والفستان الأسود الضيق، والشال الملتف حول جسدها، ونظراتها العميقة داخلي وداخل صديقي، الذي التفت إليّ معبرًا عن خجله من اختراقها وربما استمتاعه العظيم..

لقد فكرت فيها كثيرًا، وزارتني بصوتها في أحلامي، وراودتني الأفكار عنها كامرأة بكل عنفوانها وسطوتها وقوتها، وربما جبروتها المتخاذل؛ لأنه في نطاق هؤلاء الرجال المحيطين فحسب، حيث الطبّال والعازفين الذين يعملون تحت إمرتها؛ فكرت أن أكتبها قصة قصيرة؛ فهي بزخم حياتها، ربما كانت غازية جميلة يومًا، وربما لاحقها رواد الموالد في الأرياف والبنادر في بحري وقبلي..

- لقد رأيت كل ما تمتلكه من ثقة عظيمة.

ومن حكايات الغرام يروي الكروان

قالت: ما لنا في الغرام سوى حيل، كما الحواة نحيكها، وتنطلي على الآخرين، والحسـرة بالنار تكوينا. قال: الأمر لكِ.

قالـت: ومتـى كان الأمر لـك أنت؛ فالكون يسـجد بين يـدي صاغـرًا، وأسـير بيـن الكواكب أميـرة صغيـرة تتفقد أحـوال رعيتك، وأعود لأجلس بين يديك وتحت عرشـك لأروي الحكايات.

قال: لأنك مني وأنا منك؛ لذا أطمع في ذاك.

قالت: وذاك الذي تمنيته دون كلمات، أمنية من أمانيّ، وليس أطماعي.

قال:...

قالـت: وما حُمرة الورد سـوى عناد للفـراق، يُحببه في البقاء هنا عندي..

لنُنصِت معًا لموسيقى القلب حين ينبض بالغرام؛ فتلك الوردة الحمراء لك، وليست لسواك يا قلبه.

قال:...

قالـت: وما الصلب سـوى خلاص يا عمـري، والروح تهوى من يُخلِّصُها، وليكن اسمك للأبد حصادًا لحُبِّي!

قال:...

قالت: الطيـر والأناشـيد والمزامير لأجلك، ولسـوف أبيتُ وبين أصابعي قميصك، أُوشيه بخيوط أشواقي، ومن بلح النخيل أصنع لكأسك عرقًا نشربهُ في ليلة الرؤية، حين أنظُرك تحت سـماء لم تشـهد من قبل أجمـل من طلعتك، حين تهلُّ على روحي..

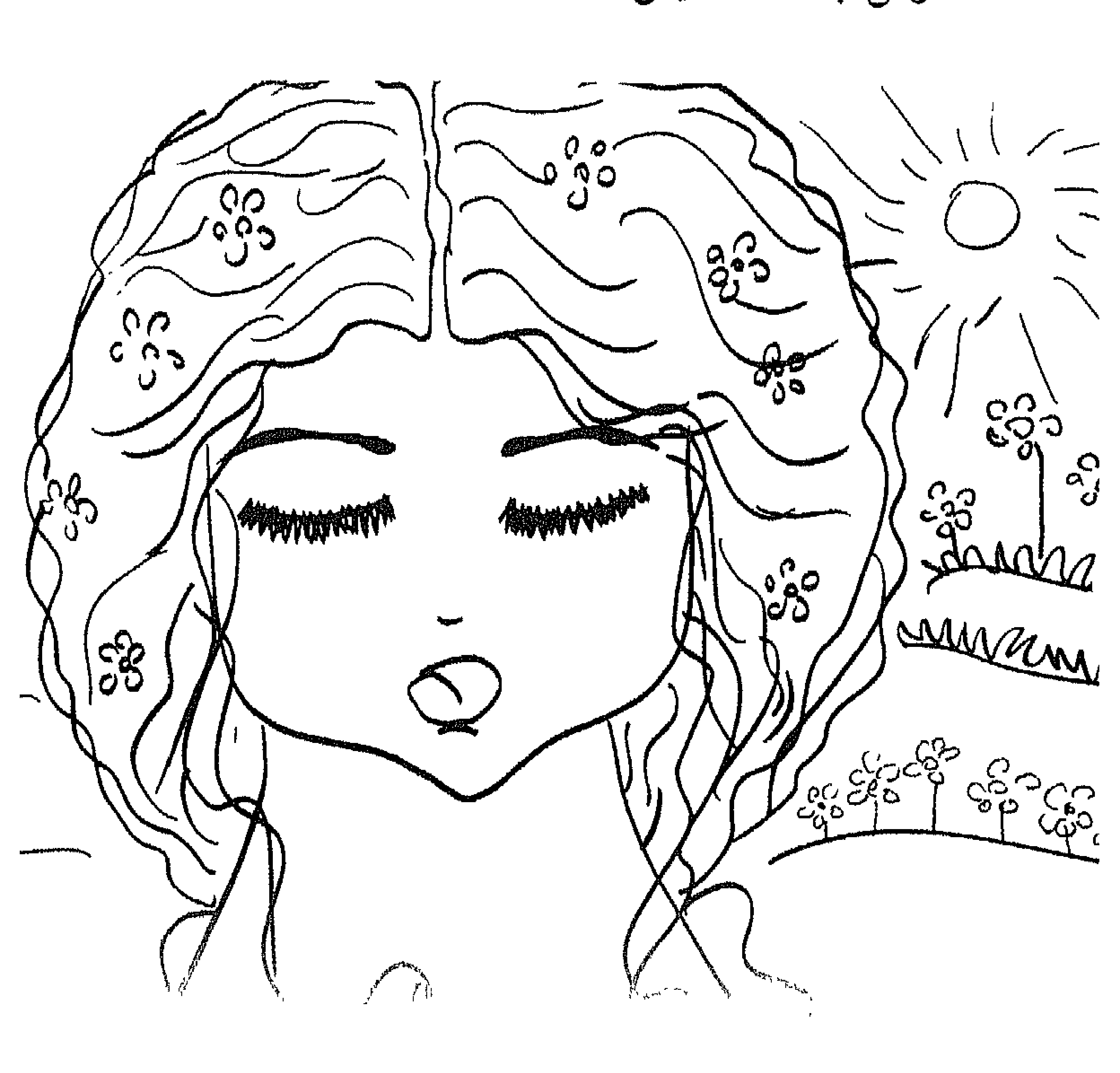
لك السلام، وعليك السلام



جلال الدين الرومي

لِمَ تجوب العالم حائرًا؟

ومن تبحث عنه ليس خارجك!



ومن حكايات الغرام يروي الكروان
7 سوناتات في العشق والفراق

1

عشقه الملائكي...

دهشة عينيه دائمًا

ودمعتي الآتية... الآتية...

همسه القديم كعزف الكمان

....

حب قديم...!!

2

عطش...

ابتهال...

نخب يوم آمل أن يجيء

حُلم قديم!!

3

أتى...

...

ذهب...

أشياء حتمية في الحياة!

4

كيف سكب الزيت على قلبها المشتعل دون عناء؟!

جاء النور

وجاء القرار

فراق

5

خيل وخيَّال

وفرس يغيب

علاقة

6

على أهدابك يستقر عمري..

قالها

وعليها تورق وريداتي..

قالها

ورغمًا عني تأتي الدموع

قالها

أعتذر

قالها

وآن أوان الغياب

لم يقلها!

7

من وحي شاعر

رائحة الوردة البيضاء؛ تنشقتها؟

وحين صارت الوردة حمراء؛ ضممتها!

الحمد لله

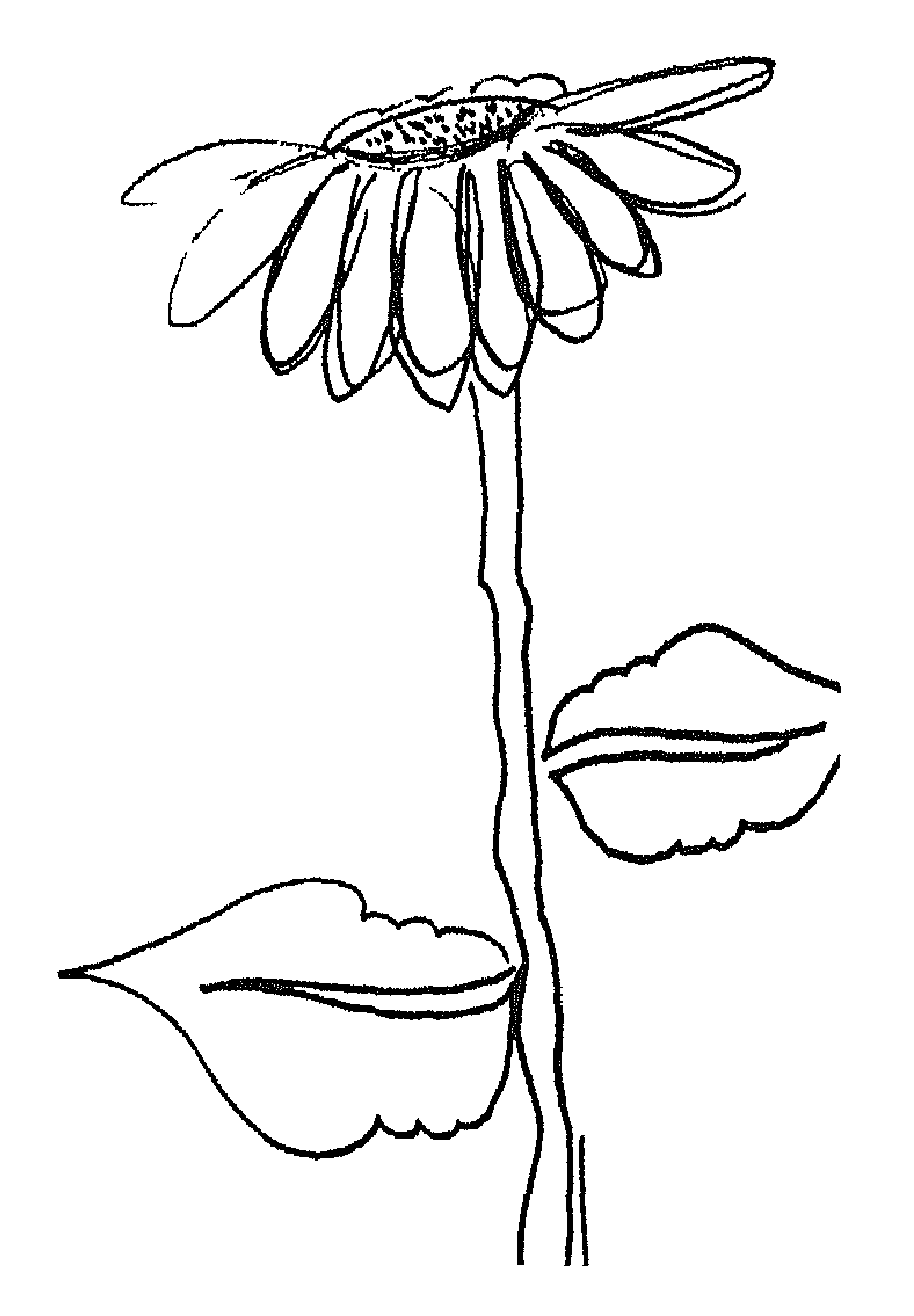
فن إكساب الحياة جمالها؛ معنى يجيده ويتقنه من يؤمن بأن الله قد خلق الإنسان في كبد؛ ليسعى ويشقى ويكدح، ثم ينال حصاد تعبه وعمله ويسعد به، ويحمد الله عليه؛ ليزيده..

وإن شكرتم لأزيدنكم.

وربما يكون القرآن شاهدًا علينا بما وضعه الله سبحانه وتعالى من قوانين للتعامل بين الناس، وفيه نجد قصة الرجلين اللذين جعل الله لأحدهما جنتين، أي حديقتين، يبدو أنهما مزرعتان بمفهومنا الحالي، ووصف الله تعالى جمال ما أبدعه فقال: ﴿ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴾.

وكان إنتاج المزرعتين وافرًا؛ فجعل الرجل يشعر بالعزة والاستكبار والتكبر على صاحبه، ومن فرط الغرور، أخذه معه في زيارة لمزرعتيه «عشان يتمنظر عليه»، ويأتي التعبير القرآني ثاقبًا؛ فيقول تعالى:

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴾. لقد كفر الرجل بنعمة ربه وظن أنه مخلد هو ومزرعتيه. ويأتي جزاء الله وعقابه: ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾. فلو كان متواضعًا، وهو فعل إيماني، لما كان اغتر بأنه أعز نفرًا من صاحبه، ولا كان قد فقد كل ما يملكه في لحظة، ولكنه اختيارنا نحن البشر، حين نفقد مغزى الخلق، ومعنى اكتساب الحياة لمعناها واستمرار احتفاظنا بحصادنا؛ بشكرنا لله.



الكيان الحميم

فيه البداية والنهاية..

فيه صنعنا آباؤنا، وفيه يحصد الله ثمار أرواحنا.

فيه نستمتع بالحميمية، وفيه قد يستنزفنا الألم.

صديقـي «جون» لم ألتقه سـوى ثلاث مـرات؛ لتتوطد علاقتنا بشكل غير اعتيادي..

«جـون فيليبـس» فنان تشـكيلي أمريكي، كنا فـي لقائنا الأول، كما لو كنا قد تعارفنا من قبل!!

لم يسـتغرق الأمر منا سـوى مرور الكرام على أسمائنا التـي تبدو أمورًا هامشـية.. وفي المـرة الثانية كان الموقف يبدو كما لو كنا قد عشنا معًا دهرًا سابقًا..

وفـي اللقاء الثالث قرر «جـون» دون نقاش أنني بالفعل كنـت إحدى أبطالِ حياته، حين عاش في مصر في الأسـرة الثامنـة عشـر عـام 1350 قبل الميـلاد! هنا ضحكـت، فأنا علـى الأقل، وبجذوري اليونانية الألبانية من ناحية والدي، لا يمكن أن أكون من سـلالة فرعونية؛ إلا إذا كانت خلفيتنا

تعود معًا إلى قارة أطلنتا المفقودة، وما صاحبها من أساطير!
ضحك جون، وقال: ربما!! «جون رانسوم فيليبس» المولود في بداية الخمسينيات، لديه يقين بأنه مصري صعيدي، ولديه أيضا إيمان يثيره للغاية حين ينفتح الحديث وتتقافز من عينيه دوامات تلف المكان تبحث عن ذكرى..

انتبهوا، «جون» لا يفضل القاهرة مطلقًا ويأتيها مرغمًا! ألم أقل لكم إنه صعيدي ذو جذر فرعوني خفي؟! أنبأني «جون» بنعت الآخرين له بالجنون، وهو بصراحة، ودون تورية أو تجمل، كاذب يفخر بجنونه كما أفعل حين تهاجمني رئيستي في العمل، متعللة بضيق صدرها مني بأنني مجنونة، والجنون لكلينا أمرٌ ممتعٌ، فهو دليل مادي ماثل للعيان بأننا لسنا ضمن القطيع، والحمد لله. لم يتوقف جنون «جون» عند حدود النزعة التناسخية، بل جذبني من معصمي وقادني إلى مرسمه في الهواء الطلق؛ لأشهد بورتريه «أم كلثوم» ومناديلها التي انفجرت فيها بالتة اللون بسخاء وفيضان كسر الجسور وأغرقها..

قال لي: إن البورتريه الحقيقي يكمن في الطاقة الكامنة داخل ملابسها! جنون «جون» يبحث دوما عن جنون آخر يقتبس منه، وهكذا جاء «السرير» أو الفراش كهاجس لاحقه كبؤرة تدور في فلكها إنسانيتنا؛ فصاغه لوحات صادقة. هكذا

أومـأت حين داعبتني الفكرة، فالفـراش بالفعل هو البؤرة، ففيـه نقضي ثلـث أعمارنا تقريبًـا. فيه البدايـة والنهاية. فيه صنعتني أمي بمشاركة أبي، وفيه سيحصد الله ثمرة روحي. فيـه نسـتمتع بالحميمية، وفيه قد يسـتنزفنا الألـم. فيه يأكل البعـض، كما يـرى «جون»، وربما يعملـون، ففي أخريات أيامـه رسـم «ماتيـس» لوحاتـه، وكتـب البعـض أعظـم مـا قـرأت الإنسـانية. فيـه نحلـم ونعيـد تخطيـط حيواتنا. وفـي فـراش أحلامه وجـد فرويـد المـادة الخـام لأفكاره الجريئـة حول العقل الباطـن. إن جنون «جون» هو مدخلنا نحـو عواطفـه العميقة، جسـده، حياتـه الثقافيـة، فالفراش الـذي اختاره مكانًا سـاكنًا، صـار متحركًا متقلبًـا ديناميكيًا بـكل طاقته التـي بثها في قلبـه. وفي العري هناك تتلاشـى الملابس وتتبخر مع طاقة الإنسـان الذي يصنعها؛ فتنزوي البقايـا فـي ركن مـن اللوحـة، به: قلـب، وصدر، وشـفاه. جنـون «جـون» يدخلك مجال رؤيته شـديدة الخصوصية؛ فتنـام علـى الفـراش وترفع رأسـك، وتحملق في السـقف لتـرى فيما يرى اليقظـان أطيافًا ملونة وبشـرًا مجنونًا. وفي قلـب الحلم تنفتـح كوة نرى فيهـا خبراتنـا القديمة، ففوق الفراش عادة تقبع مرآة لماضينا، تدعونا كي نتذكر..

فأنَّا تنفعنا الذكرى!



وبعد أن كانت حكايات الكروان

الواقف على سور شرفتي؛

كانت مقولته الأخيرة

في الغرام:

إنه رقصة تداوي القلب

على الإيقاع المُتقن للحياة



العجوز (*)
الرجل صاحب الحكاية

ملامحه ذات الوهن العتيق، وارتعاشته المثقلة بأحزان حفرت أخاديد على بشرته المتغضنة الخشنة، إنه الكائن قويًّا، بضحكاته الفائتة التي ارتعدت لها الجدران في أزمنة ماضية. جولاته صولات معروفة في صحوة الشباب، ببذته البيضاء الأنيقة، وطربوشه، وربطة محكمة على عنقه المشرئبة، وزهرة وردية لم تكن تفارق صدره. لقد بقي بنفس عنفوانه القديم تحت ركام مخدعه، وفراشه البارد، وخبزه الجاف المحفوظ في علبة صفيح، لقمة اكتفى بها، لا يلح في طلب سوى كوب الشاي الساخن، لا يدخل سياجه المحظور في معظم الأوقات سوى تلك التي صارت جزءًا من الجدران. المكان يفوح برائحة عشب الزعتر الذي خالطته التوابل في طبق «الدقة» الخشبي، رائحة ممزوجة بأريج أنواع من الكولونيا، وعلى منضدة ملاصقة لفراشه ثلاث برطمانات

(*) العجوز: رجل بورسعيدي يُدعى «عمي حسن».

زجاجية مملوءة بالحلوى الملونة والنوجة والعسلية، رشوة مشروعة لأحفاده في غاراتهم القصيرة، اتقاءً لصراخهم بعد أن يعم المكان الفوضى، حين يتسللون للعبث تحت سريره بأوراقه المكدسة: شهادات خبرة، وميلاد ووفاة، وألبومات كاملة لعصر لم يشهده أحد من الأحياء. وعلى روزنامة ميلادية تحمل أوراق عام 1981 يبدأ مشروعه التاريخي، ويقضي زمنًا في إلصاق صور الأسباط الاثني عشر، فمنذ أن أحيل إلى التقاعد استغرقته فكرة أن يرسم بوجوه ذريته لوحة، تلك الوجوه التي أخذت من قسماته الكثير، ولم تنل من روحه نصيبًا. وفي صباح يوم سبتمبري كانت لحيته البيضاء الكثة في احتياج لتشذيبها، فمنذ شهور لم يخرج من عزلته الاختيارية..

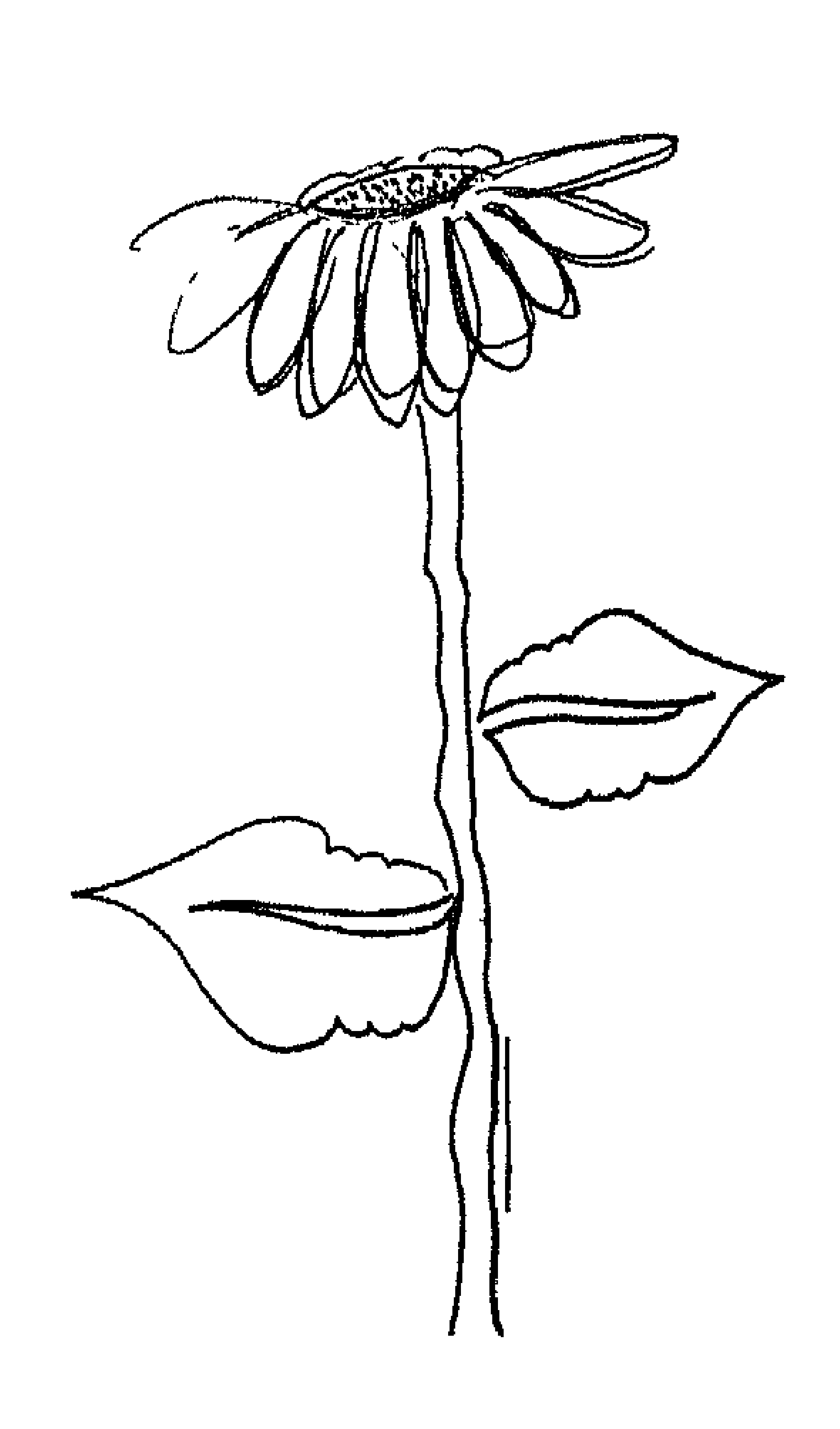
أتى ابنه البكري ليصحبه إلى الحلاق، لكنه رفض النهوض؛ رفضه الانصياع لفكرة تناول الدواء؛ رفضه لأي محاولة لدفعه نحو فعل لا يرغب في أدائه. ولكن تظل دائمًا المقاومة حالة قابلة للإحباط، فقد نهض يجرجر ساقيه، ثم توقف ينظر في كسرة باقية من مرآة طالما كان يختال أمامها مزهوًّا بفحولة بعيدة: لحيته وشعره، ومشط يتخللهما، وقطرات من ماء

الورد، وكولونيا لها رائحة تحمل ذكرى مساء عمره نصف قرن..

أصر اليوم أن يخرج زجاجتها من الدولاب مبرشمة تفتح لأول مرة، تفوح معتقة كعرض أوبرالي.. وكمشهد أسطوري نبيل، غزت وجهه نظرة زائغة مغلفة بابتسامة وديعة مستسلمة لأوان قد آن.. وكأنه يستنشق عطرًا آخر قادمًا من مكان خارج المكان.

راح الواهن في إغفاءة طويلة، استرد بعدها وعيه مع اختراق خيوط الفجر لليلة لم تنل منها القابعة بجواره غمضة عين. ثم كانت صرخة ألم كتمها بصعوبة، تسلل أنينها الخافت إلى أسماعها، عندها انتصبت الرفيقة ابنة السبعين كالوتد، نادت الأبناء الاثني عشر، قدموا ولم يكن النهار قد شق بنوره السماء، وحضورهم في الوقت المبكر يجب أن يحمل إنجازًا. قرروا نقله إلى المستشفى. خطوات جامدة تخترق حصار باب لم ينفتح على مصراعيه منذ سنوات لغرباء.. اقتحام، وأيدٍ تزيح الصفائح والبرطمانات المرصوصة وركام من الأغطية ثقيل، حاول هو بذل مجهود يفوق قدراته حتى يتوحد مع «الملة» الخشبية أسفل «مرتبته» التي لم تتزحزح منذ دهر، و«السرنجة» تلقى بعصبية بعد أن ارتخى الجسد مسجًّى بلا حراك، وعلى «النقالة» حملوه بدم بارد،

متجاهلين نظراتٍ فزعة انبعثت منذرة بفراق مرتقب. الواهن.. المرتعش.. كان يعرف أين ستكون خطواته القادمة، الطريق إلى «الجبانة» في مسقط رأسه، مكانه الذي أعده قبل أن يشتعل رأسه شيبًا.. الصبار وزهور الأقحوان الصفراء زرعها بيديه، وقبل شهرين كانت زيارة خاطفة سبقت الإقامة، منح فيها ابن الحارس عشرين جنيهًا، وأوصاه أن يرعى جنته ويرويها.. ولم يخب ظنه، فقبل أن يزجوا به في سيارة الإسعاف، كان قد فارق الحياة، ومرة أخرى عاد بكل فخر المنتصرين إلى فراشه الحميم.



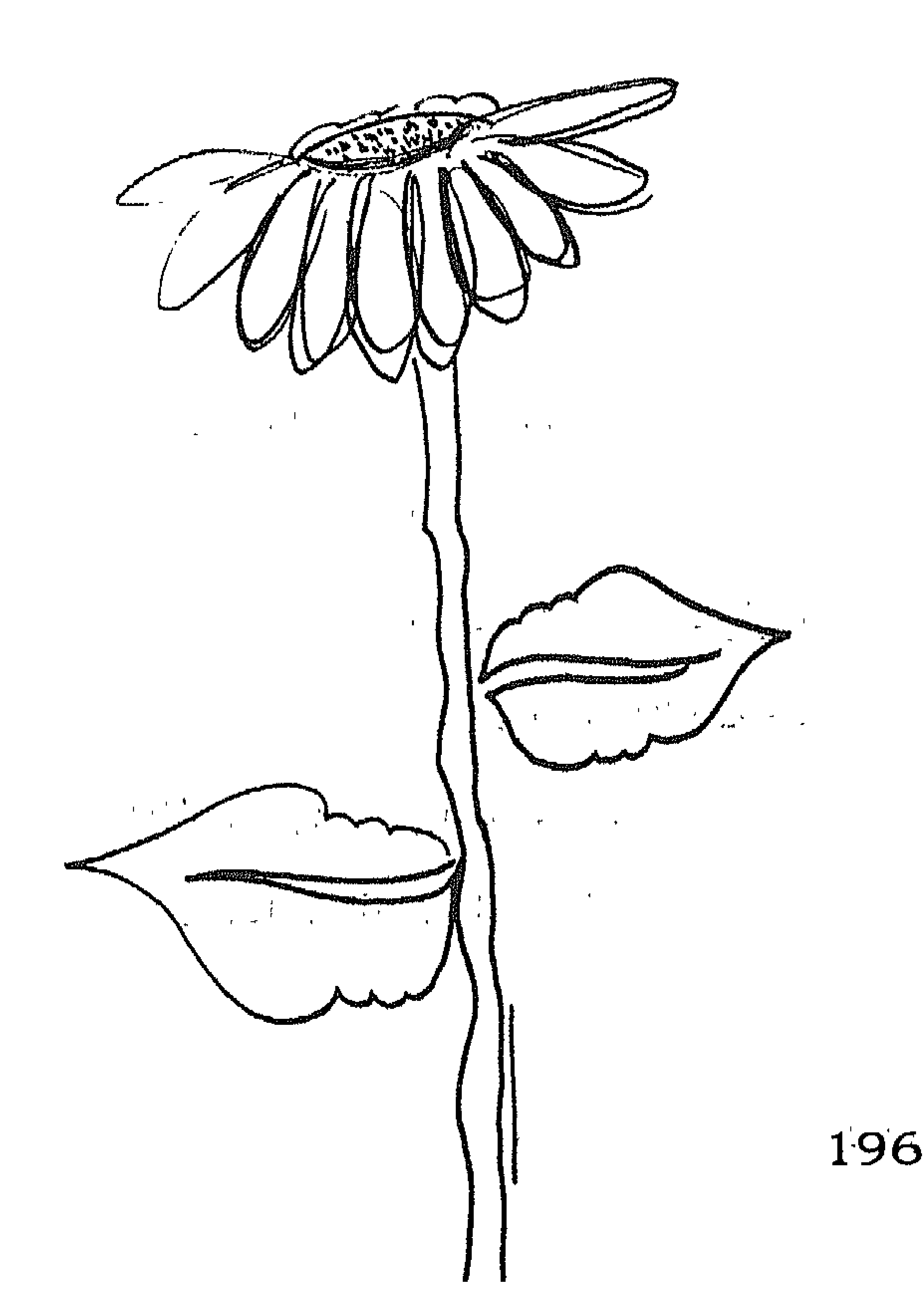
قالت صديقتي الحبيبة، التي تُفجر داخلي دومًا الصخب المُدوي لركود الحياة

قالت صديقتي: أراقب اللا حدود لذاك الأفق المرافق بالسكون الرقيق كما الأثير، وروحي تتهدج بدوامات حسية فائرة، بصدى الماضي على ما أغلقته من أبواب، بالصخب المدوي لركود حياتي الحاضرة و بطرق المجهول على أبواب لم أفتحها بعد...

وقال لها الكروان: اللا زمان واللا مكان وأكوان لم نعرفها بعد؛ خارطة طريق لنا، فاللا محدود على اتساعه خانق تضطرب فيه أرواحنا، تلك الأرواح الفوارة بهوى الترحال الأثيري، تصطخب في صمتها البليغ وتنفلت إلى براحنا الأسطوري، كربات آلهة لم تعرفهن الأرض ولا السماء ولا صناديق الذاكرة المنسية..

ربـات شـقـقن الآفـاق إلى الـلا زمـان واللا مـكان بلا حدود ميثولوجيا، ولم تقطفهن صفحات دونت بها الأقلام أنطولوجيا الملاحم..

وبرفـق يقترب الكـروان من صديقتـي؛ ليضعها تـحت جناحـه فـي حضـن دافـئ، ويلتقفهـا بحنـو، وينفلـت إلى اللا حدود.



«صلاح عبد الصبور»
المعنى، يا صاحب المعاني

الحروف تتقاصر عن المعاني في بحر المعرفة الإلهية..

إذن فحروفي وكلماتي قاصرة.

وعلى لسان الحلاج، يقول العظيم صلاح عبد الصبور:

سألت الشيوخ، فقيل:

تقرّب إلى الله، صلّ ليرفع عنك الضَّلال..

صلّ لتسعد،

و كنت نسيت الصلاة؛

فصلّيت لله رب المنون،

و رب الحياة، و رب القدر.

و كان هواء المخافة يصفر في أعظمي،

و يئز كريح الفلا..

فأدركت أني أعبد خوفي، لا الله،

كنت به مشركًا لا موحّدًا،

كان إلهي خوفي؛

فصليت أطمع في جنّته.

***

«كان إلهي خوفي؛

فصليت أطمع في جنّته،

ليختال في مقلتيَّ خيال القصور ذوات القباب،

و أسمع وسوسة الحلي، وهمس حرير الثياب،

و أحسست أني أبيع صلاتي إلى الله...

فلو أتقنت صنعة الصلوات لزاد الثمن،

و كنت مشركًا، لا موحدًا،

و كان إلهي الطمع

و حيّر قلبي سؤال:

تُرى، هل قُدّر الشرك للكائنات؟

و إلاّ، فكيف أصلي له وحده،

و أخلي فؤادي مما عداه؟؟؟

لكي أنزع الخوف من خاطري

لكي أطمئن..

لكي أطمئن..»

***

فكم منا يمكنه أن يقول:

« ولدت كآلاف من يولدون

بآلاف أيام هذا الوجود؛

لأن فقيرًا – بذات مساء – سعى نحو حضن فقيرة،

و أطفأ فيه مرارة أيامه القاسية.

نموت كآلاف من يكبرون،

حين يقتاتون خبز الشموس،

و يُسقَون ماء المطر.

و تلقاهم صبية يافعين حزانى على الطرقات الحزينة؛

فتعجب، كيف نموا و استطالوا،

و شبت خطاهم..

و هذي الحياة ضنينة».

الحروف تتقاصر عن المعاني في بحر المعرفة الإلهي، وإن حروفي وكلماتي قاصرة، ولكنها مجرد محاولة للوصول.. وتنجلي نفسي لتتذوق من المعنى بقدر ما وهبني الله.

ولأن العلم مضنون؛ أشار ابن عربي: «فالذي صفته أنه «ليس كمثله شيء» يستحيل طرح أمره طرحًا موضوعيًّا يشترك في فهمه الكل.. وإنني لا أريد أن أعبد الله وفقط، إنني أعبد الله لأنني أرى آياته.. لأنني أرى معناه..».

فأنا لا أعبد الله بنفسي لأنني سأكون في حينها مُدعية، بل أعبد الله بالله، وبأدلته على نفسه، وكما فسّر ابن عربي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قائلًا:

الله أظهر نفسه بحقائق الأكوان

في أعيانها؛ فاعبده به

إن كنت تعبده فلست بعابد،

فانظر إلى قولي لعلك تنتبه!



كلمات

يـا كروان الليل؛ ها أنا قد رصعـت ردائي بنجوم ليلك، ومنحت حبيبي بهجتي، ووضعت على مفرق شـعره إكليل حبي يزهو به.



روح قهوة وفُل أمي

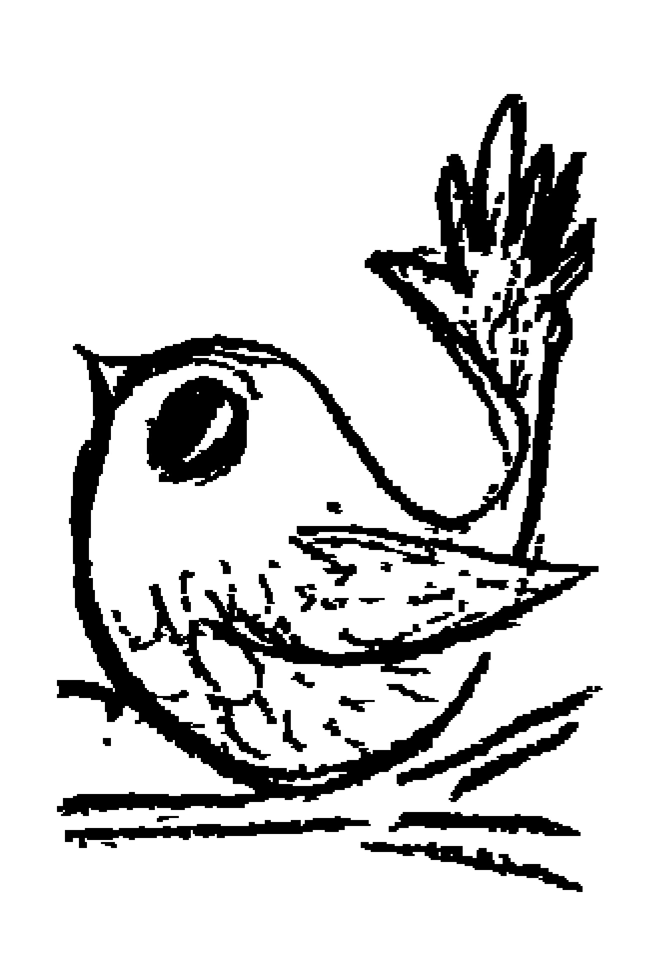
رغم رغم... رغم ورغم... رغم الرغم

«صباحكم فُل مِجوزِ..»

إنه الفل الذي كانت أمي تسقيه قهوة كل صباح..

كانت بعد ما تشرب قهوتها الصباحية تمنحه الرشفة الأخيرة؛ فينتعش ويزدهر..

وكنت أظن أن «بُق» القهوة هذا هو ما يضفي عليه جمالًا ورائحة تزيد عن الفُل العادي!



إليكِ الورد يا جدتي..

إليك الورد يا جدتي.. أيتها المسيحية الطيبة

وإن أسـلمتي فـي أُخريـات أيامـك؛ فما للعقيدة شـأن بحبك لذاك الوطن..

وسـأظل أدافع بكلامي المسلم عن جذري المسيحي، مـع جـدي المسـلم وجدتـي المسـيحية، التـي أحبتـك يا مصر وأصرت أنها مصرية، وكانت دومًا تردد: «أنا مصري» بلغتهـا العربية المتدغدغـة الحروف، اللذيـذة الوقع على الأذن، فكنـا ننـادي تلك اليونانيـة المسـيحية الطيبة بلقب صار هو اسـمها منذ أن وعيـت على الدنيا: «ماما مصري»، التي أسمعها تتردد الآن:

المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة.



«المجد لله في الأعالي..

وعلى الأرض السلام..

وبالناس المسرة»



بحب الحاجات

سألني أحدهم مندهشًا: كيف تحتفظين ببراءتك حتى الآن؟! إنني الآن في السادسة و الأربعين ومررت بكل ما يمكن أن يكسبني خبرة لا نهائية في التعامل مع البشر سواء ماديًا أو معنويًا.. ولكم عانيت من قهر وغُبن وكم تألمت وكم بكيت على نفسي وعلى أحباب قسوا و قصوا ولكنني كنت دومًا أعود إلى تلك الطفلة التي أحبت الرسم وحكايات جدتها وتحسست جمالا دفينا داخلها لم تطالعه في المرآة.. فحبي للعالم الخاص الذي نسجته هو شرنقتي التي أحتمي بها والذي أنقذني من أهوال كثيرة قد تُروع سواي.. ورغم أن أصدقاءً لي أيضا يعتبرون حبي للحاجات خطيئة لا بد من أن أتخلص منها.. لأنني بذلك أتعلق بأشياء خارجية لو فقدتها أفقد سعادتي.. إلا أنني صارحتهم بأن القوة والسعادة النفسية التي أحصل عليها لن يؤثر فيها فقدان شيء لأنه عُرضة ليبلى أو أن يتحول إلى أسمال ولكن فترة وجوده في كنفي تبعث داخلي طاقة جميلة لن أفقدها لأنني أعرف قيمتها تمامًا.. ولهذا أصر على حبي للحاجات.. كل الحاجات الحلوة في الحياة

وتلك رسالة إلى كل الحاجات الحلوة وحاجاتي الجميلة في الحياة..

عايزة اعترف لكم إني بحب حاجاتي فوق ما تتصوروا فلا أشتري إلا إذا أحببت وبناء على كل الحب يصبح بيني وبين الحاجات ولع وبالتالي أخاف دائمًا من أن تفارقني فأتألم وأعترف لكم أني أحيانًا بحب حاجاتي أكتر من بعض الناس لأني عارفة إن حاجاتي الحلوات مش حيغدروا عمرهم بيّ وحضرب لكم مثال عمركم سمعتم عن قلم عور صاحبه في قلبه؟؟ أو سمعتم عن دفتر أفشى أسرار صاحبه؟ أو سمعتم عن عروسة غدرت بصاحبتها حبيبتها أو خانتها؟ أو إني مثلا ممكن أتصور إن حبيبي شالي الصوف الحنَين اللي بيدفيني ممكن يسيبني ويروح يدفي حد تاني غيري منه لنفسه كده لمجرد انه زهق مني أو إني بقيت مش عجباه خلاص؟ واللي بتحب الحاجات اللي بتحكيلكم دلوقتي بتقولكم كمان عندي درج من زمان بأسميه درج الذكريات.. بحط فيه قلم يونيبول سن 5 ارتبطت به وبماركته للأبد وبحب أستخدمه دايمًا في كتابة مقالاتي وخواطري العزيزة وفي الدرج ده كمان عندي جوابين أو تلاتة كنت بعتهم لأمي حبيبتي بعتذر لها عن عملة سودة وانا مراهقة أو خطأ غير مقصود أزعجها ونتذكر تلك الجوابات الطفولية ونضحك مع بعض من قلبنا؟؟

وعلى الشمال في الدولاب اللي جنب السرير فيه رف عليه فسـتان صغنن نونو كنت بلبسـه وانا في اللفة و فسـتان تاني لما كبرت شويتين وشـافني بيه ابن الجيران وقاللي كلمتين لسه مخبياهم جواه بكل دلعهم وكمان صور مع داليا ونادين وفدوة ويولاند من رحلة الاقصر وأسوان واحنا في الثانوية العامة وكشاكيل مجلدة باللون البني من الإعدادي لما بدأت أكتب في كراسـة التعبير مواضيع إنشـا أسـتاذي العزيز عبد الصمد كان بيكتبلي عليها كلام قوّى قلبي وروحي. أعزائي إن درجي السـري ممتلئ بالحاجات الحلوات وبالذكريات واهيه النوتة اللي حطيت على غلافها لوحات لفنان تشكيلي كان بيبهرني وأنا عندي 16 سنة ولما بقى عندي عشرين سنة رسـمني فتاة غلاف ولسـه اللوحة متعلقة على الحيطة فوق الدفاية في البيت اللي فارقته.. بس كل ما بشتاق للحاجات اللـي بحبهـا بجري ويعيـط وأنا ببص لعمر فـات وعمره ما حيرجـع إلا فـي دماغي أنـا وحاجاتي بيننا حاجات أسـرار وحـكاوي ميعرفهـاش غيرنـا.. وعشـان كده اتأكـدت انها مخلصـة ووفية ويفتكر دايمًا قفـص العصافير الكناريا اللي كان ابني «ميدو» حابس جواه عصفورين سماهم «موجولي وسـنوه وايت» وحتى بعـد ما فقدت القفـص ده بقى جوايا حاجة من الحاجات وذكرى مش حتغيب حتى بعد ما ماتت الكناريا.

وكمان حتفضل عروستي «مشيرة» اللي أخدتها أختي الصغيرة «تامي» بدون علمي و(مزقتها إربًا إربًا) ولملمت أشلاءها وأنا أبكي محبة وتبقى «بوسبوسة» قطة الجيران في راسي بالرغم من أنها فارقت دنيانا وعارفة أني مش حشوفها تاني بتتنطط ومزقططة وهي بتستقبلني على السلم لأنها عارفة إني حخطلها البسكوتة «المفتوتة» في اللبن.

آه.. وها هو الحجر البني الشفيف الذي تركته لي جدتي ليظل برهانًا على حبها الخالد في قلبي والحاجة اللي فاضلة من الحاجات الحلوة «كان عندها حتة نتفة صندوق مجوهرات كان مليان أجمل الحاجات اللي ياما اتمنيت أن أضعها على صدري لتزينه وعندما أهدتني تلك العقيقة اللي بتفك الضيقة واستقرت دلاية على صدري لا تفارقني صار الحجر حبيبا إلى قلبي وفأل حب وذكرى حميمة لجسد جدتي الدافئ المُحب الذي طالما نمت محتضنة إياه وحلمت أحلامًا ملائكية كوجهها الرائق وقلبها الصافي رغم علمي أنني لن أرى جدتي ثانية لكنها ستظل في ألبومي هي الجميلة حتى آخر العمر بحب الحاجات مزيكا.. ويحبها «زوربا»

الطبخ حالة حُب

دخـول المطبخ وممارسـة فعـل الطبخ مـن الحاجات «الحلوات» اللي بتخليني أشـعر بحالة من النشـوة.. وآاااه مـن « السـوبرماركت» وحلاوتـه، واللـي بعتبـره فسـحة وحكايـة في حـد ذاته، بحضر لها «التحاضيـر» ومعايا نوتة حمـراء بلـون الـورد البلـدي المفتـح على عنقـوده، قمت بتجليدهـا خصيصًـا عنـد عبد الظاهـر اللي مفيـش منه في مصـر كلهـا، واللـي مكانـه فـي الأزهـر، و«دقيـت» علـى جنبها اسـمي بحروفـي المذهبـة اللاتيني المحببـة وأرقام سـنة ميـلادي 1966 لتحمل بقلبهـا وصفاتـي الحبيبات.. عارفيـن، مبحطلهـاش بارفـان ولا دياولـه، بـس بحط بين دفتيها حبي للحياة ولأولادي وبالتأكيد لنفسي اللي بحبها، بـس مش نرجسـية ولا أنانيـة، ولكن لأني مؤمنـة إني لازم أحوش حبة حب لنفسـي؛ لأني لـو محبتش روحي عمري ما هحب حد..

نرجع لنوتتي الحبيبة التي أضع في ثنايا وحنايا أوراقها مسـحوق القرفة أو (السـينامون) بحب التسمية الإنجليزية دي لأنهـا لايقـة على الجو العـام ومزاجي، فأنـا باتابع قناة

مبهرة اسـمها «فتافيت» وباقتبس من طباخيها أو شـيفاتاتها المؤنثات الشـاطرات اللي طليانية واللـي إنجليزية واللي جزائرية.. وإن كانت رائحة طشة الملوخية التي أدلعها وأذكر اسـم اللي في بالي، وأنا أضعها علـى النار؛ فتفوح رائحتها في أنفي؛ فأسـعد بتذكر أنه لا يفضلها إلا من يدي، وأسمي باسـم الرحمن وأغرف لـه طبقه وأدعوهـا: «أكلة حبيبي». أعزائـي ياللـي حبيتـوا الحاجـات.. إنني أحـرص على أن تفـوح مـن مطبخـي الصغنـن القمر رائحـة الفانيليـا والتي لا أفضلهـا بيضـاء بعـد تكريرها، يعني مبحبـش الحاجات لمـا بتبقي صناعي، إنما بحبها فانيليا طبيعي لونها أسـود!! أيوه يا جماعة، لونها أسود - وده لأني جهبزة - لا بقولكم إيه، مبحبش الكلمة دي لأنها مش لايقة على حالة العشـق والمعشقة اللي أنا واقعة فيهم مع الطبخ_ والله أنا كان نفسي أبقى طباخة.. لا بقولكم إيه تاني..ححكيلكم على حلمي الأولانـي اللي هو امتلاك مطعم مكون من سـت ترابيزات فقـط على مينـاء بريـوس اليوناني اللي بموت فـي دباديبه، وده بناء على جذوري اليونانية المنتمية لجدتي حبيبة قلبي اللـي والدة أبي والتـي كانت صعيدية «جريجيـة» من اللي جُـم مصر وماتوا في هواها ومـا فارقتهاش لحد آخر لحظة فـي عمرها المديد.. يعني جدتي اللي كانت بالمناسـبة كما البـدر المنور ليلة تمامه فنانة في الطبخ بحب زي سـلالتها البحر متوسـطية القوقازية وجداتها الربة أفروديت الجميلة

صاحبة المهارات الإبداعية في الفن والجمال.. وكانت ما بتصدق حد من أحفادها يدخل بيتها العامر وتستفرد بحبه وتعمله ما لذ وطاب وكنت بعشق إني أقف في حضرتها ويامـا لقطت منها الحاجات اللـي أولادي التلاتة بيحبوني أطبخهالهم لحد دلوقتي.. ويا حلاوة البالوظة الملظلظة لما بكون عيانـة كأنني كنت أمرض خصيصا من أجلها وكانت بتعملها لأنها خالية من اللبن (من الماء والنشا والسكر فقط) بس جدتي العبقرية كانت بتديها رشتين حُب بمية الورد.. وآه مـن حلاوتها! كانت تصنعهـا بدرجة حب عالية تجعل منهـا سببًا لا يختلـف عليـه اثنـان للشـفاء وكأنهـا نفخت فيها من صحتهـا الوافرة ليقوم المريض «المخستك» مننا «رهـوان» بعد أن يتناولها وبعد أن تدهـن له جدتي «كيتي» الجميلة جسمه كله بزيت الزيتون الدافي..

وجدتـي كيتي اللي هحكيلكم عليها بعد كده وأقولكم أسـرارها اللي خـلاص مابقتش أسـرار، كان مطبخها مش لصنـع الأكلات الحلـوات بعشـق فقـط، وإنمـا أجزخانـة بيتوتية تحمل في أركانهـا وصفات العلاج الكاملة بمنتهى بسـاطة المحب حيـن يقبل علـى احتضان حبيبـه بلا أدنى تكلف..

فيكفي بُق عسـل من إيديها المنمنمة عشان نخف تاني يوم!

الجسد

سيرة اللحم والدم والروح

هو طلقة رصاص وعبوة ناسفة في ثقافة المقاومة..

هو المتعة واللذة بعد أن هبط آدم وحواء من الجنة وقبل الخروج منها..

وهو وعد المتعة المنتظرة الخالدة في الكتب السماوية «فبأي آلاء ربكما تكذبان»..

هو الكيان والوعاء الطهور لمن يتفكرون..

هو أنا وأنت.. إنه ذلك الجسد المسكوت عنه والمبني للمعلوم والمبني للمجهول معًا، والفاعل والمفعول به.. إنه الكلمة والقصيدة والصورة والمنحوتة الربانية في ثقافات تسامت به إلى معارج الآلهة وثقافات أخرى خسفت به إلى درك العبودية.

إنه سيرة اللحم والدم والروح معًا..

سيرة الإنسان..

سيرة الذكر والأنثى..

الأمير الصغير

ما إن تنتهي من الصفحة الأخيرة من الأمير الصغير للعارف بالحياة أنطوان دو سانت إكزوبيري، حتى تسمع في داخلك بكاءً..

أميرك الصغير ينتحب شوقًا لكوكب غادره وزهرة فارقها طوعًا واختيارًا..

طغيان عالم الكبار يجعلك تتوقف ويجعلك تخجل منه وتداريه لأن الأمير الصغير هو رمز الفطرة النقية التلقائية التي غطتها كل هذه الحُجُب، حتى صار من المتعذر علينا تلمسها في أعماقنا قبل أن يلتقي دو سانت إكزيبوري الطيار الواقع في الصحراء بالأمير الصغير.

وكان رسم أنطوان المفضل ثعبانًا ابتلع فيلًا متأثرًا بكتاب قديم يحوي رسمًا لثعبان ابتلع وحشًا. ولكن أحدًا من عالم الكبار لم يرَ في الرسم أكثر من قبعة.. مع أنه فيل لا أكثر. وقد كان الرسم انعكاسًا لداخله الصافي الذي يرى حقائق الأشياء بعين البصيرة

- العين الثالثة - التي تضمر مع تقدم العمر.. ولكن أنطوان حين يكبر يتعلم الطيران ويصير طيارًا، والطيران أيضا ينطوي على التحليق والنظر من أعلى إلى الأشياء، ولكنه البصر، فرق شاسع بينه وبين البصيرة، والطائرة هنا رمز للعالم المادي والحياة العملية للكبار الذي أُجبر عليها الطيار مُكرهًا.

وتتعطل طائرة أنطوان في الصحراء ومن قلب العزلة يأتيه الأمير الصغير.. الذي لا يكف لحظة عن الدهشة والأسئلة، ويلقاه في الصحراء، وكأن الوحدة شرطٌ للالتقاء بهذه الفطرة أو بالطفل القابع فينا..

إنه الأمير الصغير القادم من كوكبه وعالمه الداخلي بعد أن ترك زهرته التي لم يستطع أن يفهمها، ولا أن يتحمل حيلها الساذجة للمحافظة عليه وغادرها رغم حبه لها.

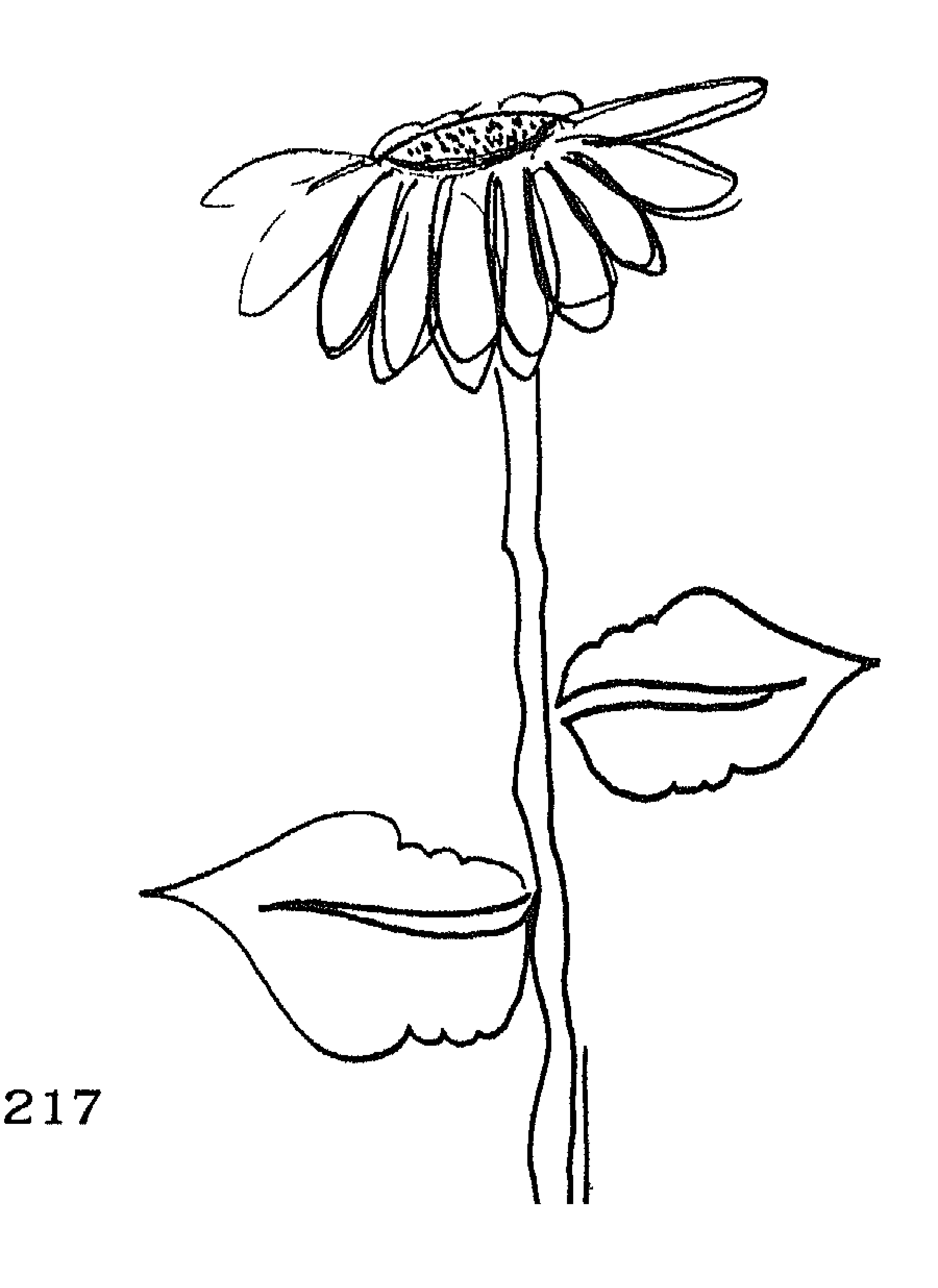
وإنها تلك الزهرة المزهوة بجمالها المنسجمة مع أشواكها التي تظنها قادرة على قهر أعتى الأعداء..

تلك الزهرة التي خُلِقت لتوصل إلينا فكرة تقبُّل الحبيب بكل ما فيه حين فقط نقدر أن نحبه، ولكن إذا قرر الرحيل تبدي كبرياءً يمنعها من سكب الدمع حزنًا على فراقه،

الحبيب الذي لم يفهمها وتمنى لو تمتع بها ولم يصغ إليها!

ولأن الزهرة المزهوة بجمالها لم تقدر أن تعبر عن حبها، فأوقعته بالشك والتردد.

ويرحل الأمير الصغير تاركًا زهرته وكوكبه إلى اللا مكان واللا زمان.



الأميرة الصغيرة

لقد تقابلنا منذ أيام قليلة في اللا مكان،

وعليك الآن أن تحدق في مرآتك لِتُدركني.

تأملني على صفحات كتابك..

اسمعني حين تكون وحيدًا..

أنا من تدعوني لتتعلم مني الوهم،

وتعلمني أنت الحكمة.

***

أنا الأميرة الصغيرة

أيها الرجل الكبير..

يا من ترسم صندوقًا، وتخبرني أنه قط!!

اسمعني.. أنصت..

ستبقى روحي هائمة ترانيمها في الأفق..

وسأمنحك أيها المسكين نبض ابتهالاتي..

آه يا من تظن أنك رجل الزمان..

وتصمم أن تحشو بي النجوم وتدخنني..

سأبقى هنا أمتطي نعامتي..

وسأطاردك لأتخطى بساعتي الحواجز..

وسأزحف نحو كواكب أخرى..

أيها الحكيم.. يا من تظن نفسك رجل الزمان..

لن ترسم صندوقًا وتخبرني أنه قط..

فأنا الأميرة الصغيرة التي ابتدعت الوهم..

وها هو كوكبي..

وها هي منضدتي الأنيقة منتثرة عليها أحلامي...

وتلك هي مساحاتي ملونة بقوس قزح!!!

وها أنت تمر بجانب قصائدي وتغازل أحراشي

ولأنك مني فلن تغيب عني..

لكنني سأبقى بعيدة،

فأنا الأميرة الصغيرة،

أيها الرجل الكبير..



مسك الختام
مصر يا أول وآخر حكايات الغرام

مصـر يـا نـول بتعزفـه إيديـن الغلابة.. يـا فلوكـة النيل وشراعه الأبيض ..

مصـر.. يا حِجـر جدتي الدافـي، وقولتها سـاعة صلاة الجمعـة: «لا حول ولا قوة إلا باللـه وأرقيكي يا بنتي رقوة محمد بن عبد الله»

مصـر يا شـمعة في كنيسـة العـدرة وصوت الشمامسـة بترنيمة رايقة.

مصر يا مولد الحسين والسيدة وياسين التهامي والحب ديني وإيماني..

مصر يا منورة في الصورة ومنحوتة في الطينة ومزروعة في الطمية وغنية في الفيضة..

مصر يـا أدان الفجر وصلاته ودقـات أجراس الكنايس في الآحاد وفي المغرب مدفع الإفطار..

مصـر يـا طعـم طعامـة البتـاو وفطيـرة العجـوة ولذاذة الكشـري والحبسـة بخمسـينة شـاي، وطعم المعسـل في الشيشة وركوة القهوة في الصُّبحية وقعدة أمي مع الجارات. وإصيصة الفُلة في البلكونة والعصاري.

يـا مصـر يا خلـوة يا معسـلة يا بطاطـا.. يـا كوباية عرق سوس يرطب الجوف في عز حر أغسطس..

ويـا شـفطة حمص الشـام المشطشـط في الشـتا تدفينا واحنا بنتمشى ع الكورنيش..

مصر يا شعب الورد والفل والياسمين..

مصر يا شعب آمن وكان في بلده مآمن.

وحيـاة النـص فرنـك والتعريفـة والجنيـه المصـري وبورصـة القطن، وحياتـك يا مصر لـ هيعيد التاريخ نفسـه وهيبقى من جديـد فيكي رفاعة طهطاوي أصلي وأم كلثوم وطلعت حرب وسيد درويش..

وهتكونـي انتي دايمًا في روحـي.. أول وآخر حكايات الغرام..

الرحيق المختوم

-1-

﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾

المؤمن لا تصفو مرآة قلبه حتى يعرف الحق فيكون من الأبرار.

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَـٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَـٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾
يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾
عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾
يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ
فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾
وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة المطففين الآيات: 18 - 28)

-2-

إن ما كُتِب من أعمال الأبرار المؤمنين المطيعين ﴿ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴾ .. وعنه قال: «عليون في السماء السابعة تحت العرش»، وفيها ديوان أعمال السعداء فإذا عمل العبدُ عملًا صالحًا عرج به وأثبت في ذلك الديوان وقد رُوي في الأثر أن الملائكة تصعد بصحيفةٍ فيها عمل العبد فإن رضيهُ الله قال: «اجعلوه في عليين».

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ ﴾ مرقوم: يشهده الملائكة المقربون وأرواح المقربين وهم يُسقون من خمر الجنة والرحيق من أسماء الخمر وهو أعلى أنواع الخمر لأن أهل الجنة يتلذذون برائحته الطيبة وخمر أهل الجنة.. خمر خالصة من الدنس.. خمر صافية محكمة مختوم على إنائها لا يُفك دونهم .. وآخره رائحة المسك.

-3-

«إنهـا خمـر المحبة الأزليـة، الصافية من كـدر الهوى، مختوم عليها في قلوب العارفين.»

الإمام ابن عجيبة

«أوانـي ذلك الشـراب هي قلوب الأصفيـاء والأولياء، خِتامه مسـك، وهو محبة الحق، لا يشرب من تلك الأواني المختومـة إلَّا الطالبـون الصادقون في طريق السـلوك إلى اللـه ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ فمَـن فاته حظه من هذه الخمرة فهو محروم».

الإمام القشيري

-4-

ويقول ابن الفارض:

على نَفْسِهِ فليبْك مَن ضاعَ عُمْرُه

وليس لهُ مِنْها نَصيبٌ ولا سَهْمٌ

دعائي:

اللهم اجعلنا ممن يسقون مؤمنًا شربة على ظمأ فيسقيهم الله من الرحيق المختوم.. وممن يطعمون مؤمنًا على جوع فيطعمهم الله من ثمار الجنة.. وممن يكسون مؤمنًا ثوبًا على عُري فيكسيهم الله من خضر الجنة..

الفهرس

الجزء الثاني

الجزء الثالث

***

دعاء الكروان بحبك يارب

يا مالك المُلك
إبعد عن روحى الكرب
وعالج قلبى من الهم
وأنصرنى على الغم..
يا مالك المُلك آتنى صبراً جميلاً
ولا تجعلنى مكتوفة اليدين فى وجه
الشيطان .. ولا تبيتنى فى مسائى
مغدورة من صاحب أو عدو فاجر.
يا مالك المُلك .. إن الموت
لقاء لك وبك .. وصلنى إلى سر أمنك
وأمانك يا صاحب المُلك والملكوت..
واجعل موتى رحلة من يقين أصغر
إلى يقين أكبر..

"يا كروان الليل، حلِّق عاليًا إلى السماء السابعة، وآتني بالبهجة في قارورة عطر مصفاة من زهر نافذ فواح.. يا كروان الليل، تلك هي ترنيمتي الغرائبية السحرية التي ستأتيني بها.. إنها ترنيمة العاشق والمعشوق.. ولقد رأيته في السَّحَر يعتلي جواده.. يرفُل في الأبيض.. يشق رمال الحياة.. وها أنا الزرقاء أشهده بعين روحي".

هذه نصوص مدهشة برؤيتها وحكمتها الطفولية، وبشاعريتها شديدة الإيجاز وبأسطورية الحكي الأخاذ، وبصوفيتها التي تنبثق من ثنايا الحروف لتسكن في وجدان القارئ، وبمرجعيتها لكل حرف مسطور في أمهات الكتب أو متوارٍ خلف أجنحة الحكمة والفلسفة أو خارج من بين حنايا صدور الأولياء ومجاذيب أهل البيت.





دينا توفيق.. كاتبة صحفية تعمل حاليًا بعد أن تخصصت في الكتابة والتراث لسنوات بمجلة "البيت أيضًا لسنوات عديدة بمجلة "



الدار المصرية اللبنانية